سندباد للنشر والتوزيع

شبح الجنوب

دينو بوتزاتى



ترجمة

د . نجوى عمر كامل

شبح الجنوب

شبح الجنوب

دينو بوتزاتى

الطبعة العربـية الأولى ١٩٩٩

* * * * *

سندباد للنشر والتوزيع

لوحة الـغـلاف : بابلو بكاسو

رقم الأيـداع :٩٩/١٠٩٠٤

الترقيم الدولى :I.S.B.N

٩٧٧-٥٩٦٦-٠٠-٠

شبح الجنوب

دينو بوتزاتى

ترجمة

د . نجوى عمر كامل

سندباد للنشر والتوزيع

الصخرة

أخبرني صديق من "صقلية" أنه حدث في جزيرة "ليبارى" منذ سنوات مضت ، أن تحول رجل عجوز إلي صخرة .

لم تكن تلك الصخور البحرية تثير دهشتي من قبل .

أما القصة التي حكاها لي الصديق للمرة الثالثة أو الرابعة ، فكانت هكذا..كان يعيش في القرن الماضي في "مًسينا" ، رجل يمتلك مجموعة صغيرة من قوارب الصيد، وله ابن وحيد في ريعان الشباب .. فتن الولد بحب البحر ، وغالباً ما كان يخرج مع رحلات الصيد الخاصة بأبيه ، الذي كان فخوراً به ، وقلقاً عليه في نفس الوقت . ذات ليلة عندما وصل إلي جزيرة "ليباري" ، علي مسافة عشرات الأمتار من الشاطئ الغربي ، قامت موجة كبيرة وقلبت الفتي حيث لم يعد له أثر .

منذ ذلك اليوم ، والوالد ينتقل كل يوم إلي "ليباري" ، تدفعه لوثة من الألم . وعندما يكون البحر مواتياً ، يذهب بقارب صغير إلي المكان الذي لقى فيه الولد حتفه ، حيث يقيم لعدة ساعات .. ينادي علي ابنه بصوت عالٍ . ويصطنع معه أحاديث لا تنتهي .مرت بضع سنوات علي هذه الوتيرة .. أصبح الوالد الأرمل عجوزاً . فقط في الأيام ذات الجو الصحو كان يستطيع أن يمارس جنونه الشاذ . حتى انتظروه ذات ليلة بلا أمل في العودة . ذهبوا إلي المكان ، فلم يجدوا إلا الصخرة خالية .. تهتز صورتها علي صفحة الماء .

لكن الشئ البالغ في الدهشة ، هو أن الصيادين الذين كانوا يعرفون هذا الشاطئ أكثر من معرفتهم لبيوتهم ، لاحظوا أن هذه الصخرة لم تكن موجودة في تلك النقطة من قبل ، وأن الماء لابد قد انشق عنها .بلغ تفكيرهم إلي أن الألم المزمن قد استطاع في النهاية أن يجمّد العجوز .

وأبلغني الصديق أنه منذ ذلك الحين لم يعد يجرؤ أكثر

الشباب إقداماً علي المغامرة بالاقـتراب ليـلاً مـن تلـك البقعة، واكتفوا بالدوران من بعيد . لكنهم كانوا يسـمعون من مواقعهم البعيدة – وخصوصاً في الليالي المقمرة– نداءات الأب اليائس ، ونحيبه ، وصياحه ، وأنينه .أما من جهـة الجنوب ، فقد اتخذت تلك الصخرة شكل عجـوز هزيـل . وعند وقت معين في الساعات الأخيرة من الليل ، يفتح الفم ويغلق متحدثاً ، كما تنفتح العيون ليتساقط منـها الدمـع . لكن ويل لمن يجرؤ علـي اقتحـام الحـزن المنعـزل بنظراتـه الفضولية . خـاطر أحـد الصيـادين وفعلـها ، ففقد في عـدة أشهر أبناءه الأربعة جميعاً .

كانت الأسـطورة – مـن هـذا الوجـه – رائعـة في غايـة الروعة . لكن الناس بدأت تسأل عـن معلومـات أكـثر دقـة بغرض التسلية ، وخصوصاً في "ايوليه".غير أن الأساطير تكتسب سعة وازدهاراً حين تغادر موطنـها وتسـافر عـبر العـالم . فـإذا جـري البحـث عنـها في موطنها الأصلي، ففي الغالب لا يوجد إلا رؤى ضبابية

متفرقة .

ففي "ليباري" كان بعض الصيادين يعرفون من بين الكثير من الصخور ، الصغيرة والكبيرة، الناتئة من البحر تلك الصخرة المسماة "السيد العجوز" ، لكنهم لم يكونوا يعرفون المزيد.. لا أحد يعرف القصة الباكية للملاح الذي فقد عقله حزناً علي ابنه . فيما عدا رجلاً متقدماً في السن ، ذا وقار ظاهر ، اقترب من أحد المقاهي .

ربما كان يبلغ الستين .. وقوراً .. حليق الوجه تماماً.. يرتدي قميصاً ذا أكمام قصيرة نظيفة ، يذكرني بالمثل الذي قام بدور زعيم"مجتمع الشرفاء" في فيلم "زعيم العصابة" "لألبرتو سوردي"

قلت له : " من فضلك .. حضرتك من هنا ، من "ليباري" ؟ " فأجاب ببطء : " نعم، هو ذاك .. لكنني لا أعيش هنا في الشتاء ، هل يمكنني أن أعرف .. ؟ " " نعم، كنت أريد أن أسأل حضرتك فقط عن معلومة ، عن شخصية نقول إنها فولكلورية " "تكلم ، تكلم .. "

" أما سمعت حضرتك بقصة رجل من "مسِّينا" تحول إلي صخرة منذ سنوات مضت؟"

خرجت كلماته واثقة : " نسمع ، نسمع من الصغار غرائب كثيرة .. "

وهنا افتعل إبتسامة بين الدبلوماسية والريبة. وقال:

" لكن السنوات تمر .. السنوات تمر .. "

" ألا تعرف حضرتك ماذا كان يدعى ، ومتي حدثت هذه الواقعة ؟ "

" الواقعة ، لو صدق أنها حدثت ، فقد كانت في سنة 1870 تقريباً ، لكن يمكن أيضاً أن تكون قبل ذلك ، أو لم تحدث مطلقاً .. "

" لماذا؟ ألا تعتقد في صدقها ؟ "

" أرجوك لا تجعلني أقول أشياء أنا لا .. "

ونظر إلي الساعة في يده وقال :لقد تأخرت معذرة .. " ونهض ، وحياة جميع رواد المقهي باحترام .في اليوم التالي ، سألت شابين عن رصيف الميناء ، حيث استطعت

أن أحصل علي قارب له شرفة خارجيــة لأقـوم بجولـة في الجزيرة . البحر راقد في سـكون .. لاحركـة للأمـواج ، لم يكن الأمر ليحتاج إلي سفينة كبيرة لمثل هذه المهمة .

تفرق الأولاد بعيدا، وبعد أقل من خمس دقـائق عـادوا وتحلقوا حول صاحب قارب لم يحدث أن رأيته من قبل .

كان طويل القامة .. شديد الهزال .. بـالغ الشحوب .. يمكنك أن تعطيــه تسـعين سـنة ، تجعيـدة وجهــه تنطـق بذلك .. وقبعتــه مـن القـش ، ذات الطيـة العريضـة يذكـر بوجوه الاستوائيين التعساء تحت الشمس . الذين يتـألقون علي صفحـات "كونـراد" . وأشـد مـا فيــه تأثــيرا هــو "شروده" الخيالي الذي يجعله لا يدري ماذا يدور حوله.

لاحظت أن ذراعيه المهزولتين تنتهيان بيديـن ملئتـين بالحفر المرضية ، تتحركان بصعوبـة بالغـة، تكشـف عـن معاناة طويلة لمرض تخلخل المفاصل . خطواتة أيضـا كـانت متعبة ومرتعشة بعض الشئ لو لم يكن البحر مشجعا ،

ماقبلت أبدا رفيقا كهذا قد يسبب المشاكل

. سألته للمرة الأولى : " هل تعرف صخرة السيد العجوز ؟ "خفض رأسه قليلا ربما علامة علي الموافقة ، وبدون أن ينظر إلى أشار في بؤس رصين مستتر عن طريق قطعة من الدبارة إنها علي بعد عدة أمتار من هنا . لكي نصعد إلي هناك قام بقفزة صغيرة ، انثني لها بجسده كله، مما سبب له ألما حادا . تابعته .. ذلك العجوز المسمى "كريشينو" بسهولة غير متوقعة ، قام بتركيب محرك صغير في حجم آلة التصوير . ورحلنا معا ، في غمغمة رتيبة .

كنت أجلس في الأمام .. ساكنا ، ويدي علي حاجز الشرفة .. نظر إلي وجهي ، لكنه لم يكن يراني ، أو كان هذا علي الأقل هو انطباعي الكريه .

اجتزنا المرفأ ، واتجه القارب إلي الممر بين "ليباري" و "فولكانو" علي حدود البلد تحولت الطبيعة فجأة إلي حالة متوحشة ، الشواطئ تميل إلي الانحدار غير العادي، متخذة أشكالا غريبة وقاسية ووعرة . كم تختلف

تضـــاريس "ايوليـــة" عـــن هـــذه التضـــاريس المهيبة الرومانسية ذات الطابع الإنساني في "كوستييرا" علـي ساحل "أمـالفي" مثـلاً أو الـتي في "اسـكيا" أو في "كـابري" . هنـا أيضـاً حوائـط صخريـة ، ومرتفعـات ومنخفضات . لكنها تشبه واقـع رحلـة خياليـة ؛ مشـاهد مسرحية عميقة "لفيردي" . أغوار وتـلال يكللـها اللـون الأخضـر .. خشـنة وعذبـة في آن واحـد . تناسـب أدوار الحب. بينما في الأسفل تلتوي الأسوار والصخـور، عاريـة وملتهبة ، في وضع قلـق واحتجـاج ، متذكـرة دائمـاً ذلـك الجحيم الذي يحيطها من أسفل بناره

كثير من النحاتين اليوم يحسنون صنعاً حينمـا يغـذون إلهامـهم الرقيـق بملامسـتهم سـاحل "ايوليـة" . حيـث شكلت الطبيعة أعداداً هائلة مبتكرة من أشكال الوحوش.. عناكب عملاقة مستديرة .. أعضاء كلاب ضخمة ومشوهة.. عرائس البحر ملتوية الأشكال .. أطـلال منـهارة.. وجـوه ممزقة .. هياكل محترقة .. صواعق جرانيتيـة .. جروح

غائرة متقيحة .

أقزام وغيلان في العذاب .. قلاع مزيفة .. كاتدرائيات غير مقدسة . وهكذا يخلق كل واحد من أضيق الفراغات الغائرة المنعزلة ، وفي كل زاوية باطنة مثله الأعلي في الجمال ، أعني ذلك الغموض .

سألت "كريشينو" : " أتلك هي صخرة السيد العجوز؟ " عندما كنا في منتصف المسافة تقريباً بعيداً عن الشاطئ الغربي للجزيرة . كنت قد عرفتها في الحال .

تحول لينظر ثم أشار لي بالموافقة .

لم تكن الصخرة تعلو عن خمسة عشر متراً، متحاملة علي سور درامي ، بواسطته يمكن تجنب الصخرة بسهولة . كان الشكل دائرياً ، دون نتوءات أو خدوش . أما في اتجاه الجنوب،حيث كنا نقترب ، كانت هناك حفرة رقيقة مرهقة حولها نتوءات صفراء وبنفسجية، تنعقف في الأسفل كشمع علي وشك الانصهار . حين تسطع عليه الشمس تشكل الظلال ببطء وجهاً آدمياً .. وجه طاغية

مكفهر تحلل بفعل الموت . من التجويفين المتوهمين كانت تنحدر ما يشبه القطرات المتساقطة ذات اللون الأرجواني . وعلي قاعدة الصخرة .. هناك حيث شكلت الأمواج الرقيقة بارتطامها شريطاً ضئيلاً مـن الزَّبَد ، صنـع لنفسـه حفـرة صغيرة . عند الاقتراب أكثر ، ومع السكون التام للبحـر ، يسمع هناك بالداخل ، في الثقب الأسود ، فـوران المـوج ، الذي كان يعطي صوت النحيب .

رجـوت "كريشينو" أن يطفـئ المحـرك . بعـد عنـاء ثبـت المجدافـين في القـاعدة ، حتـى لا يغـير القـارب اتجاهه.

الآن ..في الصمت العميق .. تحت الشـمس السـاطعة .. كانت شـهقات المـاء في الثقـب تنطـق بـألم أكـبر ، وبعمـق أكثر.

سألت : " هل هـذه حقـاً رجـل عجـوز مـن "مسًـينا" تحول إلي حجر ؟ "

غمغم بصوت مبحوح : "يقولون ، يقولون "

" هل صحيح أنه ينادي ابنه الميت ليلاً ، ويتحدث إليه ؟ "

أجاب : " يقولون ، يقولون "

" هل صحيح أن المجيء إلي هنا ليلاً ينذر بمصيبة ؟ "

نظر إلي بوجه خالٍ من التعبير ، كما لو كان لا يفهم .

تحت توتر القبعة بدا الوجه الذي بلا عمر ككائنات بحرية ميتة ، ثم قال :

" أنا أيضاً .. أنا أيضاً من حجر .. منذ خمسة وعشرين عاماً "

وثبّت علي بصره ، ورأسه يتأرجح ببطء .

" أنت أيضاً ، ابن .. ؟ "

أشار إشارته الخيالية بالموافقة . وقال :" جوفاني .. كان يدعي جوفاني .. مساعد رئيس السفينة "مارينا ماتابان" . "

البعبع

سمع المهندس "روبرتـو بـاودي" مسـاعد مديـر شـركة "كومبراكس" ومستشار إدارة التنظيم طفلته "اسـتر" تقـول لأخيها "فرانكو" كي تهدىء ثورته:

" إذا لم تصبح ولـداً هادئـاً ، فـإن "اليعبـع" سـيأتيك الليلة. " فاستشـاط الأب غضبـاً ، وأنـب الصبيـة ، واصطحـب الولد إلي الفراش بعد أن هدأ .

لم يعد يحتمل أن تظل مثـل هـذه الخرافـات البلـهاء هـي أسلوب تأديب الصغار ، والتي من شأنها أن تخلق عقـداً مؤلمـة في نفوسهم الصغيرة .

في نفس الليلة ..جاء "البعبع ".. جاء بخفة وسط الهواء كعادتـه .. جـاء إلي حجـرة المـهندس "بـاودي" حيـث ينـام بمفرده .. خلق له بضع دقائق من الإثارة .

"البعبـع" – كمـا نعـرف – يتشـكل بأشـكال تختلـف

باختلاف البلاد والعادات والأعـراف المحليـة. ومنـذ أزمـان بعيدة قد اتخذ في تلك المدينة شكل حيوان ضخم يميل لونه إلي السواد ، شكله بين فرس النهر والخنزير . للوهلة الولي يثير الرعب . لكن عند ملاحظته بنظرة موضوعية فاحصـة ، تركـز علـي طيـة الفـم الوديعـة ، والـبريق العطـوف في العينـين الصغيرتين بالنسبة إلي جسمه ، شكله هذا قد يعطـي انطباعـاً بأي شئ آخر إلا الشر .

كان يدرك أنه يثير انزعاجاً ، بل وخوفاً أيضاً ، إذا أقبـل في ظروف خطر حقيقي . لذلك كـانت عادتـه أن ينفـذ هجومـه بذكاء .. يقترب من فـراش الطفل المؤنّـب ، ولا يوقظـه ، بـل يقلص نفسه لكي يخترق أحلامه عند أي نقطة توقفت فيـها .. نعم ، هذه هي الإشارة الأزلية . فهو يعرف جيـداً أنـه حـتي أحلام الصغـار فيـها متسع لاستقبال الوحـوش الضخمـة مـن أمثاله.

عندما تمثل "البعبع" للمـهندس " بـاودي" لم يكـن – بطبيعـة الحـال – ذا وجـه بـالغ الطيبـة ، بـل اتخـذ ملامـح

شخصية يعرفها ، هي شخصية الأستاذ "جالوريو" الذي عُيِّن منذ شهرين مندوباً خارجياً لشركة "كومبراكس" ، رجل شديد الصرامة ، فظ في معاملاته اختاره الوحش ليحل في صورته .

استيقظ "باودي" غارقاً في عرق جليدي ، استغرق وقتاً حتى يبصر الزائر الذي انسل من خلال الجدار . فلم تكن النافذة لتكفي جسمه كله .

في صباح اليوم التالي ، أحجم عن الاعتذار "لاستر" المسكينة فقد تأكد بنفسه من وجود "البعبع" حقيقة . ولكن هذا التأكد زاد من غضبه ، ومن تصميمه الحازم علي بذل ما في وسعه لاقتلاع هذا النموذج من البيئة .

في الأيام التالية بدت نبرات السخرية وكأنها طبيعية ، حيث استسلم المهندس "باودي" وزوجته والأصدقاء والمشاركون للأمر الواقع . وظلت الحيرة في استعاب حقيقة وجود "البعبع" . مع أنه مثل أي ظاهرة طبيعية .. كالمطر ، والزلزال ، وقوس قزح .

وحده الدكتور "جيمونيو" صاحب المكتب القانوني ، بدا وكأنه صدم ، نعم كان يسمع في زمن الطفولة أحاديث شائعة عن مثل هذا الشيء ، لكنه اقتنع بعد ذلك بسخافة عقله السانج . وكما لو كان "البعبع" قد خمّن عداء الناس له ، فقد اعتاد زيارة المهندس "باودي" منذ ذلك الحين ، ودائماً بقناع الأستاذ "جالوريو" الكريه ، ساخراً منه ، يهزالسرير، يسحبه علي قدميه ، حتي وصل به الأمر ذات ليلة أن جعله ينبطح علي وجهه حتى كاد يختنق .

في مجلس العموم التالي لم يكن هناك شئ بارز ، حيث إن "باودي" لم يتكلم مع أي زميل عن قصة البعبع ، فهل يمكن أن يكون حادث كهذا –لا يليق إلا بالعصور الوسطي – مادة للفخر أو للحديث في مدينة كبيرة كهذه المدينة ؟ أليس الوضع –في نهاية الأمر – تعوزه البراهين القاطعة ؟

غير أنهم كانوا يتحدثون بصفة عابرة ، في تبادل للآراء، أصبح المهندس "باودي"يتكلم بحرية . لم يمر شهران حتى وصلت المشكلة إلي مجلس العموم ، حقاً لم يرد ذكرها في

محضر الجلسة – تفادياً للضحك – لكن التعليق الخامس أشار إليها سريعاً بقولـه : " حـادث مؤسـف أزعـج ليلـة هادئـة في المدينـة " .

علي العكس مما توقع "بـاودي" لم يؤخـذ الموضـوع علـي محمل الجد من الجميع فحسب ، بل إن بحثه التوضيحـي قـد قوبل باعتراضات حيوية أيضاً . ارتفعت أصوات للدفاع بحجة أن الوحش الأسطوري مجرد مظهر فني تقليدي مسـالم ، ضـاع في ظلام الزمن ، يخلو من الأذي . وسط صمت الجميع. مؤكدين علي الفوائد التربوية لزياراته الليلية . كان هناك مـن تحـدث مباشرة عن محاولة اغتيال التراث الثقافى للمدينـة فـى حالـة اللجـوء الى وسـائل قمعيـة ، وقوبـل الخطيـب بعاصفـة مـن التصفيق .

على الجانب الآخر تغلبت المعارضة القوية وحجتها ما سموه بالتقدم لتدمير آخر حصون الأسـرار . اتـهم "البعبـع" بأنـه يترك انطباعاً مرضياً في نفوس الأطفال ، بفعل مـا يسببه من كوابيـس تتنـاقض مـع أسـس التربيـة الصحيحـة ،

حقاً إن الوحش الليلي لم يلوث المدينة ، ولا كان ينثر مخلفات من أي نوع ، لكن من يضمن أنه ليس ناقلاً للجراثيم والفيروسات و"الميكروبات" ؟ كما أن اعتقاده السياسي مجهول ، كيف نستبعد أن إيحاءاته البسيطة – بظهور كهذا– إن لم تكن خشنة ، فإنها ربما تخفي مكائد تخريبية ؟

انتهت المناقشة في الثانية بعد منتصف الليل . ووفق علي اقتراح "باودي" بأغلبية ضعيفة تقدر بخمسة أصوات . وعُيِّنت لجنة مناسبة من الخبراء كان هو نفسه رئيساً لها ، لتنفيذ الاقتراح عملياً .

كان اقتراح طرد "البعبع" قائماً ، أما الفكرة الأخري فهي التخلص منه نهائياً . والأسلوب الذي يتبعه "البعبع" حتى الآن لا يمكن التعويل عليه ، فقد يتغير . كذلك هناك شك في مستوي فهمه للغة . وقطعاً لا يمكن التفكير في القبض علية وإيداعه حديقة الحيوان المحلية ؛ إذ أي قفص يمكنه التحفظ علي حيوان قادر علي الطيران واختراق الحواجز ؟ كذلك استبعدت فكرة السم حيث إنه لم يضبط مطلقاً في حالة

أكل أو شرب . إذن .. هي القنبلة.. قنبلة صغيرة من النابالم، ولكن المخاطرة غير مأمونة العواقب بالنسبة للمواطنين .

الحل إذن يمثل مشكلة عويصة ، هذا إن لم يكن مستحيلاً.

كاد "باودي" يشعر بتسرب الرغبة في النجاح من يده ، عندما تراءى له خاطر : صحيح أن البناء العضوي والتركيب الكمياوى للبعبع مجهولان ، ولكن أليس هذا هو الحال بالنسبة للكثير من المخلوقات التي يحفل بها سجل الأساطير؟ أليس من الممكن أن تكون في غاية الضعف ، تجرح بأبسط مما نتصور ؟ من يدري ، ربما تكفي قذيفة بسيطة تصوب إلي الهدف الدقيق وينتهى الأمر .

بعد تداول الأمر في مجلس العموم ، رفضت قوات الأمن العام أن تقدم تعاونها . والذي تقدم هو مؤسسة تملك فرقة عسكرية صغيرة خاصة غير نظامية ، مجهزة بوسائل اتصال لاسلكية سريعة. الأمر كان سهلاً ، والغريب فيه هو امتناع مؤكد من جانب ضباط الشرطة والنواب عن المشاركة في

الضربة، فهل كان خوفاً ؟ هل هو الخوف الغامض من اقتحام غرفة محرمة ؟ أم هو ببساطة ارتباط الحنين إلي ذكريات الطفولة المضطربة ؟

تمت المقابلة في ليلة باردة مقمرة . لمحت الفرقة الكامنة في ركن مظلم من ميدان "500"، المخلوق الذي يحلق متسكعاً في سلام علي ارتفاع ثلاثين متراً تقريباً ، أشبه ببالون نزق . تقدم النواب بالمدافع المصوبة .. احتبست الأنفاس .. تتابع صوت الطلقات النارية القصيرة ، واحدة في إثر الأخرى، كأنها آتيه من مكان بعيد جداً .كان مشهداً منفراً . البعبع يدور عالياً ببطء ، ومخالبه في الهواء ، ودون أن يقفز ظل ينحدر حتى استقر علي الجليد ، رقد مستلقياً علي ظهره، بلا حراك إلي الأبد . كان ضوء القمر ينعكس علي البطن الضخم المشدود اللامع .

قال المصّوب "أونفريو كوتافافي" : " شئ لا أحب أن أراه مرة ثانية . "

بقعة من الدم بدأت تتسع ، شئ لا يصدق أن

يرقـد هكـذا .. ضحيـة سـوداء تحـت ضـوء القمـر .

علي الفور اتصلوا برجال البلدية لإخلاء المكان من الجثـة البائسة . لكنهم لم يصلوا في الموعد . في خلال تلك الدقائق بـدأ الشئ العمـلاق يتقلص بشكل ملحوظ . كما يحـدث لبالونـه كبيرة مثقوبة ، وتحول إلي كائن هزيـل حقير .. دودة كبيرة سوداء فوق بياض الثلج ، ثم ما لبثت الدودة أيضاً أن اختفت.. تحللت إلي لا شيء ظلت فقط بقعة الدم المزعجة . حتى جـاءت سيارات النظافة قبل الفجر فأزالتها .

شاعت أقاويل أنه بينما كان ذلك المخلوق يموت ، تلألأ في السماء لا قمر واحد وإنما قمران .. ويحكى أن جميع عصافير المدينة وكلابها انتحبت طويـلاً .. تنـاثرت شائعات أن نسـاء كثيرات ، عجائز وأطفالاً ، استيقظن مرة أخـري علي نـداء غامض ، لكن ذلك كله لم يثبت بالدليل القاطع .

الواقع أن القمر تابع رحلته الفلكية المقررة دون توقـف والسـاعات مـرت منتظمـة واحـدة بعـد واحـدة ، وكـل أطفـال العـالم واصلـت نومـها في سـلام ، دون تخيـل أن العـدو

الصديق السـخيف سـيأتي مـن خـلال النـوم إلي الأبـد .

كان الوضع أكثر هدوءاً وسلاماً ممـا كـان متوقعـاً . انتـهي ذلك الحدث التافه الذي يسمي علي المستوي الشـعبي أسطورة أو وهماً .

اهربي .. اهربي بسرعة أيتها البقية الباقية من الخيال . فإني أطمع ألا تنتهي .. العالم المتحضر يتتبع أثركِ مطـارداً .. أبداً لن يَدَعَكِ في سلام

حوادث الطرق

" قل لي يا أستاذ ، هناك خلف البوابة .. هل يوجد شئ ؟"

" هناك خلف البوابة يوجد شئ ما ، الأفضل ألا تعرفه . "

" وخلف الزاوية ، ماذا يوجد ؟ "

" خلف الركن توجد أشياء سيئة ، متراصة ،الواحد تلو الآخر ، تنتظر أي انسان يمر . من منكم إذن يريد المرور ؟ "

بعد السور يوجد الطريق السريع ، حصى وتراب ، تراب وحصى . أو قار وأسفلت أيضاً ، وكل إشارات المرور المرسومة . وعلي الجانبين اللافتات التي تقول للمارة .. مرت عشرون متراً ، ثم عشرون أخرى ، تراب وحصى وأسفلت أحرقته الشمس .. لا ينتهى أبداً ، الطريق يصعد، يعبر جبالاً وغابات ، نراها

تختفي بعيداً أسفل منا . تري إلي أين يذهب بكم ؟ "نعم ، نعم ، يا أستاذ .. احكِ لنا قصص الطريق السريع، من يدري عدد اللاتي شاهدنه ، من يدري عدد الذين ساروا علي التراب . والحصى ، والأسفلت ، وراحوا مع الأسف ضحايا السرعة الفائقة من أجل الوصول .. إلي أين؟ أين احكِ لنا القصص . "

" سأحكي لكم يا أولاد قصة العبور المشئوم .. علي بعد ستمائة كيلو متر أرادت إحدي عربات الكارو أن تعبر ، بينما وصلت من الجانب الأخر سيارة نقل . ماذا اتفق بالضبط ؟ لا أحد يعرف .. كانوا خمسة في سيارة خاصة . يبدو أن أعمارهم تتراوح بين الثلاثين والأربعين يقال إنه كان فيهم شقراء فائقة الجمال ، ذات شعر طويل يغطي كتفيها . ما حدث أن ركاب السيارة الخاصة فوجئوا بسيارة النقل ، لكنهم في آخر لحظة انحرفوا بسرعة جهة اليمين ، فاصطدم " الاكصدام" الجانبي بعجلة الكارو ، فأخذوا في التقهقر سريعاً سريعاً ..شئ أفضل من لا شئ ..

لكنكم تعرفون كم هي خفيفة تلك السيارات الملاكي .. وربما كان الأسفلت أيضاً مبللاً .. المهم أن أصحاب السيارة بدأوا يفقدون القدرة على السيطرة عليها ، فاختلت يميناً ويساراً ، لا يستطيعون التقدم لأن سيارة النقل كانت تمر، ولم تكن هناك سيارات أخرى تعبر ، فالطريق كانت خالية تماماً .

هل اختلت عجلة القيادة ؟ هل توقفوا ؟ من يعرف ؟ بدأت السيارة في التوقف – من غير أعطال – عندما عبرت حفرة ، ثم صادفت نتوءاً انحرفت ، وانقلبت علي جنبها. لكن ببطء وبغير اهتزازات خطيرة ، لدرجة أن أحداً من الركاب لم يُصَبْ بإصابات كبيرة . لكن هذه الأحداث لم تكن أبداً هي النهاية . لابد أنه حدث شئ ما من جرَّاء السقطة ، لأن خزان الوقود انفجر ، وأصبحت السيارة كلها شعلة من النار . أخذ الأفراد الخمسة يصرخون من داخل السيارة ، ويحاولون أن يفتحوا الباب ،لكنه كان قد انغلق بقوة . وصل راكبو الكارو. وجاء السائقون من السيارة النقل ، وسائقون آخرون غيرهم .

كان الوقت شتاء ، والضباب يحجب الرؤية . لكن من يجرؤ أن يقترب من النيران ؟ حاول أحد السائقين مرتين ، بعد أن غطي وجهه بغطاء لكنه لم ينجح لأن النيران أحرقت يديه . الخمسة بالداخل أحياء .. شباب معافون .. أحياء .. أصابهم الجنون لفكرة أنهم يموتون ببلاهة هكذا كفئران .. يصرخون: " النجدة ، النجدة ! تعالوا لتفتحوا لنا ! سريعاً ، سريعاً اسحبونا للخارج ! " حاول الركاب والسائقون ، لكن مجرد الاقتراب كان مستحيلاً . شوهدت ملابس الخمسة وقد أصبحت سوداء ، شوهد شعر الشقراء يحترق مثل القش .. يصرخون : " افتحوا لنا يا جبناء ! يا ملاعين ، يا ملاعين لا تتركونا نموت هكذا ! "

عرفت واحداً من أولئك السائقين ، قال لي أنه خاض حروباً ثلاث ، ومر بكل المروعات ، لكنه لم يَرَ أبداً شيئاً أكثر رعباً من تلك السيارة ، وبداخلها خمسة شباب يتقلبون في الموت لاعنين الدنيا . كانوا يصرخون ،وخصوصاً المرأة : " أقذار ، ملاعين ، أغبياء "

"فلتموتوا بالسرطان ، الموت لأبنائكم . " ثـم اختلطـت اصواتـهم حتـى أصبحـت عـواء فقـط ، ثـم تحولـت إلي حشرجات.. ثم توقفت كلـها ثـوانٍ ، حتـى احـترقت العظـام.. مـن كـان يعرفـهم قبـل ذلـك لا يمكـن الآن أن يتعرفهم . لكن ذلك السائق قال لي في النهايـة - والسيارة لا تـزال مقلوبـة في النـيران - رأي حـوالى سـتة أو سـبعة نماذج سوداء قادمة من الزراعة ، خفيفـة الحركـة .. ذات ذيول طويلة . حسناً ، مرت هذه النمـاذج عـبر النـيران ، وسحبوا شيئاً مـن الأشـخاص - الذيـن تحولـوا حقيقـة إلي أشـباح - قـال السـائق إن هـذا الشئ الـذي سـحبوه هـو الأرواح.. وتلك النماذج السوداء هي الشياطين التي حملت الأرواح نازلة إلي جهنم .. لكـن مـن يـدرى أن كـانت هـذه الجزئية الأخيرة حقيقية أم لا. "

" أستاذ .. جميل جداً أن نستمع إليك تحكي حكايـات الشارع الكبير . احكِ لنا منها قصة أخرى. "

" حسـناً ، سـأحكي لكـم إذن قصـة الشـباب . حـدث في

أمريكا .. في ليلة من شهر مايو ، بل مايو الماضي .. خمسة من الطلبة ، ثلاثة أولاد وبنتان . "دانييلو" علي عجلة القيادة ، أما الباقون فلا أعرف أسماءهم . كان "دانيلو" هذا ابناً لأحد رجال الصناعة الأثرياء ، وسيماً.. في غاية الجمال .. دائماً الأول علي فصله .. في الرياضة كان الفائز في كل المباريات .. باختصار كان مثالياً في كل شئ ، لذلك كان الأولاد الآخرون يكرهونه .

ذلك المساء كانوا يسرعون بالسيارة لا دافع لهم ، إلا لهو الشباب . كانت البنتان من النوع المتسلط ، تقرران كل شئ ، عند نقطة معينة قالت إحداهما "لدانيلو" : " اسمع يا كوزو ، هل تستطيع أن تعبر أمام السيارات التي تأتي في مواجهتنا من الجانب الآخر ، ثم تتجنبها في آخر لحظة ؟ نحن نسميها لعبة الحمامة ، فالحمام في الشارع يبدو أنه مستقر علي الأرض ، بينما يقلع بالطيران في آخر دقيقة . هل تستطيع يا كوزو ؟ . " أجاب الولد " اسمي ليس كوزو ، ثم بخصوص تلك اللعبة التي ذكرتِها ، فأنا أستطيع أن أقوم بها جيداً ولكن في

حالة عدم وجود سيارة مقابلة ، لأنكِ إن كنـت تعرفين مـاذا تفعلين فإنك لا تعرفين مـاذا يـدور في عقـل ذلـك الآخـر الـذي ظهر أمامك – وفي آخر لحظة مع الأسف ، فماذا لو تنحي هـو الآخر علي نفس الجانب .. حينئذٍ تحدث الكارثة . "

قال أحد الأولاد : " إذا كان الإنسان قـادراً علـي فعـل الشـيء لكن تعوزه الثقـة بـالنفس ، فكأنـه عـاجز " وقـال الآخـر : " مؤكد فالأمر يحتاج إلي قليل من شجاعة القلب. بدأوا يتهكمون علي الولد ، ويستفزونه حتـى فقد البصـر ، وقـال : " حسـناً انتبـهوا لي جيـداً يـا أولاد واسمعـوا . هـل تـرون الأنـوار الـتي تتـلألأ أمامنـا .. الفانوسـين الأزرقـين ، لسـيارة "كونتيننتـال" أحـدث موديـل ، أليسـت متينـة الصنـع ؟ الأن سـأذهب بكـم في مواجهتـها ، وعندمـا أكـون في وجهـها تماماً. أصغوا لي جيداً .. لن أتنحي جانباً قيـد أنملـة ، وإنمـا سـأواصل بـأقصى سـرعة ، وَلْـنَرَ مـا سـيحدث .. مـا رأيكـم ألم أتطور بالفكرة ؟ " أجابت إحدى الفتيات : " أنت يا كوزو أكـبر كـذاب .. يـووه ، يـووه أنـت تضحكـني بسـهولة ،

أبـداً ، أبـداً لـن تســتطيع شـيئاً مثــل هــذا. " " أوه .. لا " علي أي حال ، بتلك السرعة اقتربت السـيارة ذات الفوانيـس الزرقاء ، لم يعد يفصلهم عنها سوى مائتين أو ثلاثمائة متر . ردد "دانييلــو" الجميــل : " اوه .. لا ؟ " فقــط في اللحظــة الأخيرة، والأخيرة جداً فهم الرفاق الأربعة بشـاعة المزحـة ، وانطلقـوا يصرخـون .. في السيارة ذات النــور الأزرق ثلاثــة أموات ؛ وفي سيارة الطلبة لم يَنْجُ إلا واحد : ذلك الذي حكــي القصة فيما بعد . " " أوه رائع يا أستاذ أن نصغـي إليـك وأنـت تحكي هذه القصص الجميلة عن الشارع الكبير . مازال الوقـت مبكراً ، لماذا لا تحكي لنا قصة أخرى منها ؟ "

" حسناً ، إذن سأحكي لكم تلك القصة عـن حـب الأم .

كان هناك – أو الأفضل أن نقول : كانت ولا تزال هناك أم عجوز ، أنفقت فوق عشرين عاماً في انتظار الابــن حتـى يعـود مـن روسـيا . كـان قـد اختفـي في أثنـاء الانســحاب الكبير، قيل إنهم أخذوه أسيراً ، لكــن لم يتـأكد شـئ مـن هذا . لكنكم تعلمون قدر الأمــل عنـد الأم . كـم هـو عميـق

وضخم لايدانيه شئ . حسناً ، بعد عشرين عاماً من الانتظار .. قضتها السيدة العجوز مطلة من نافذتها علي الشارع الكبير ، حيث إنها تسكن في إحدى الضواحي المطلة علي ذلك الشارع من جهة الشمال .. كانت تظل طيلة يومها في النافذة تراقب السيارات والشاحنات الآتية من الشمال، عسى أن يكون ابنها علي واحدة منها . ومع كل سيارة تلوح في الأفق وتقترب ، يبدأ قلبها يخفق ، وحيث إن عملية مرور السيارات كانت مستمرة ، فإن قلبها لم يكف عن الوجيب .. لا تستريح دقيقة ، كل ثواني حياتها ترتعش ، لكنها – من جهة أخرى – هي الرابطة الوحيدة التي تربطها بالحياة.

تحت بيتها مباشرة – الذي كان مكوناً من عشرة طوابق – يوجد مفترق طرق سيئ السمعة بسبب حوادث التصادم المزعجة التي تحدث فيه . إما للفوضى المرورية ، أو لعدم كفاءة السيمافورات ، أو أن الأمر يتعلق بلعنة سحرية أصابت ذلك المفترق ، لا ينجو منها شرطي ولا ضابط مرور ، ولا يكاد

يمـــر يـــوم دون صدامـــــات فظيعـــــة .

كانت السيدة العجوز في نافذتها تنظر ، ماذا لو كان ابنها العائد مـن روسـيا في إحـدى هـاتين السيارتين ؟ أسرعت إلي الشارع ، وقد غاص قلبها في صدرها ، جرت لـترى مـن الـذي مات ، ومن الذي جُرح . أي راحة نفسـية غمرتـها ! أي حـظ سعيد ! رسمت علامـة الصليـب ، نظـرت حولهـا وقـد أشـرق وجهها .. " الحمد لله كم هو رحيم . "

فقط في تلك اللحظات تشعر بالسعادة . فبشبه معجزة نجـا ابنها مرة اخرى . وبطبيعة الحال كان الجميع يعتقدون أنـها مجنونة . "

" شكراً يا أستاذ ، هذه قصة جميلة أيضاً فما زال في الوقت متسع فلتحكِ لنا قصة أخرى قصيرة عن الشارع الكبير . "

"حسناً يا أولاد سأحكي لكم إذن قصـة الذئـاب .. كـان هنـاك غابة كثيفة ، بجوار الشارع الكبير ، يعيش فيها ذئاب استبد بها الجوع ، فإذا شبعت صارت طيبة وأليفة.. لكن الرغبة في الطعام كانت قوية .. لذلك تسللت الذئاب في الظل ، واختفت

خلف الأشجار الضخمة، في كمين ، فالامبراطور سـوف يمـر بين يومٍ وآخر. وقد قررت الذئـاب أن تهاجمـه .. الأمـبراطور يتجـول بالعربـات ذات الجيـاد .. ومركبتـه مـن الذهـب .. وحـاملو الأبـواق يقرقـرون ، وينفخـون.. وفي الخلــف تــأتي المركبات المحمّلة بالأزواد .. لحوم .. أفخاذ مجففـة .. دجـاج .. مورتاديلا أصلية من "مودينـا" محـار مـن "أوستندا" .. تورتات .. فطائر من كل

الملك فى هورم الحجر

وقعت هذه الأحداث فى اقليم هورم الحجرِ ، بـالقرب مـن " وادى الملوك " فى الفرقة المختصـة بحفريـات قصـر "منفتـاح الثانى" تسلم "جين لكليرك" مدير فرقة الحفر العجوز خطابـا من سكرتير " هيئة الآثـار" يعلنـه بزيـارة شـخصية هامـة .. عالم آثار أجنبى لامع .. الكونت "ماندرانيكو" . ومع الخطاب توصية من شخصيات كبيرة .

لم يكن "ليكليرك" يذكر أى عالم آثار باسـم "مـاندرانيكو" .فقال فى نفسه : بدلا مـن أن تـهتم " هيئـة الآثـار بـالأهداف الحقيقية الهامة ، تشغل نفسها بالقرابات والنسـب . لكـن – على أى حال – لا شىء يدعو إلى الإزعاج ، فزميله قام بإجازة ، وهو فى الموقع بمفرده منـذ عشـرة أيـام . ولا تضايقـه فكـرة رؤية وجه مسيحى فى هذه الخلوة المقدسة وخصوصـا لـو كـان صاحب الوجه ذا اهتمام بالأحجار القديمة تلك . أما عـن ذلـك

السيد فقد أرسل سيارة شاحنة إلى "أخميم" محملة بـالمؤن . ومن فوق جنـاح خشبي كـان يشـرف علي تفصيـلات موقـع الحفر، إلى جانب أنه جهز مائدة عظيمة أنيقة .

أشرق ذلك الصباح الصيفي ، حـارا ورطبا، محمـلا بآمـال متواضعة عادة ما تصـاحب مولـد يـوم جديـد فـي الصحـراء ، سرعان ما تذوب فـي حـرارة الشـمس . غـير أنـه بـالأمس قـد خرجت – من اخر الفناء الداخلى بين كومات الأعمدة المنهارة المكدسة بلا نظام – ومن بين الرمـال – قـاعدة مرمريـة عليـها نقش يعكـس جـلال الملـك ، حتـى بعـد طـول خفائـها لقـرون عديدة فى الظلام ، وهى خاصة بالملك " منفتـاح الثـانى" كتـب عليـها : " خضـع لـه ملـوك الشـمال والأحـواض المنخفضـة ، راكعين أمام جلالته مرتين .. الحياة .. الصحة..القوة

ربما تشير إلى اخضاعه لحكام أقاليم الدلتا الثائرين ،ولأنـه انتصـر عليـهم فإنـهم ينتظرونـه أمـام بـاب المعبـد ، لابسـين الشـعور المسـتعارة المضمَّخـة بـالزيوت العطريـة،فـى أيديـهم أكاليل الزهر . لكن عيونهم ليست واضحة حيث أعشـاها نـور

الملك.أعضاؤهم رهن إشارة من يده،آذانهم معلقة بصوتـه، الكلمات الموجهة إلى "منفتـاح"العظيـم ،ابـن "آمـون" (الحيـاة ..الصحة..القـوة) . حتـى الليلـة السـابقة لم تكـن الشـفرة قـد حلت بعد . وتم ذلك على ضوء المشعل.

الآن،على الرغم من أن "ليكليرك"لم يكـن يـولى أهميـة قـط للإثباتات الأكاديمية أو للشهرة ، فإن هذا الاكتشاف قد حقق له بهجة حقيقية .أخذ ينظر إلى الشرق،ناحية النهر الغـائب عن الرؤية، هناك حيث تنتـهى آثـار عجـلات السيارات فـى مشهد بلا نهاية للشرفات الصخرية المعفرة بالرمال . ويشـعر بطعم الرضا الناتج عن إعلان الاكتشـاف للضيـف المجـهول ، حقاً كم هو سعيد لأن ينقل إلى القادم خبراً طيباً.

لم تكن الساعة قد وصلـت إلى الثامنـة بعـد، رأى فـى تلـك الأثناء زوبعة خفيفة تثور فى الأفق،وتهبط إلى الأرض،أخذت تشتد وتقوى، وتتماوج فى الهواء الثابت الشفاف . ثـم بهبـة من الريح تحرك شعر "لكيليرك" الأبيض . وصـل أيضـاً طنـين موتور سيارة الرجل الغريب كانت على مشارف الطريق.

أشار "لكيليرك" بيده لاثنين من الفلاحين العابرين. أسرع الاثنان إلى مدخل السور،وفتحا الباب ذا المزاليج القوية . بعد قليل دخلت سيارة.

لاحظ "ليكليرك" على الفور شارة السلك الدبلوماسي على اللوحة المعدنية للسيارة،مما أصابه بخيبة أمل خفيفة.

توقفت السيارة أمامه تقريبا،وخرج منها أولا شاب أنيق المظهر،لابد أن "ليكليرك" قد رآه من قبل فى القاهرة، ثم سيد آخر ذو بشرة سمراء،تبدو عليه ملامح الجدية أو قل ملامح الضيق وأخيرا نزل -بجهد شديد - عجوز ضئيل الجسم، فهم "ليكليرك" أنه ذلك الضيف . كان وجهه خاليا من التعبير،كأنه وجه سلحفاة. خرج الكونت "ماندرانيكو" من السيارة مستندا إلى السيد الأسمر،وسار تجاه البوابة متكئا على عصاه. حتى تلك اللحظة لم يكن يبدو أن أحدا فطن لوجود "ليكليرك" البدين بردائه الأبيض الواسع الذى كان يخيم على المشهد. أخيرا اقترب الشاب مقدما نفسه بالفرنسية: الملازم "آفجى كريستيانى" من الحرس الجمهورى ،والبارون

"فانتين" (واضح أنه يقصد السيد الأسمر) فى شرف اصطحاب السيد الكونت"ماندرانيكو" – ربما أطلق كل هذه الألقاب ليصنع مزيدا من المهابة،من يدرى – إلى هذه الزيارة التى (نأمل أن تكون ذات أهمية عالية) .

فجأة،وعند هذه اللحظة تعرف "ليكليرك" على الضيف : طالما نشرت الصحف المصرية صورة ملك غريب،كان يعيش فى عزلة عن القاهرة .عالم آثار لامع؟ لم تكن فرية إذن.وتذكر أن هذا الملك كان قد أظهر فى شبابه اهتماما شديدا بتاريخ الحضارات القديمة. وقد استند فى هذا إلى أبحاث معتمدة.

لذلك،مثل "ليكليرك"أمامه مضطربا، وحياه بانحناءة صغيرة،وعلى وجهه الودود ابتسامة خافتة،غمغم ببعض الكلمات مع إشارة تحية من يده،ثم قدم نفسه.وسرعان ما اهتدى "ليكليرك" إلى المخرج اللبق المعتاد، فقال مشيرا إلى الطريق : " من هنا سيدى الكونت.الأفضل أن نبدأ الجولة على الفور قبل أن تشتد

الحرارة."بمؤخـرة عينـه لمح البـارون "فـانتين"ذا الأدب الجم يقدم ذراعه للكونت،غير أن العجوز رفض المساعدة فيمـا يشبه الغضب شـارعاً فـى الخطـو بضـع خطـوات ضيقـة بمفرده.تبعه "كريسـتيانى" الشـاب عـن كثـب حـاملاً حقيبـة بيضاء من الجلد تحت إبطه،وعلى شفتيه ابتسامة غامضة.

وصلوا إلى أعلى حافة صخرية،حيث تنحدر بـين حـافتين عاليتين مقتطعتين بدقة رائعة أرض فسيحة مائلة.فـى أعمـاق هذا المنحدر ظهر ما يشبه حفرة وسـعة مسطحة،فى وسطها عمود محطم،كان يشكل الواجهة الخارجية لبلاط الملك القديم.

أسماك جافة ..ظلال هندسية،تجويفات مسـتطيلة سـوداء لردهـات وأبـواب يعلـو بعضـها بعضـاً فـى فوضـى ظاهرة،كاشفة.فى هذه الصورة للمـوت،أن تلـك كـانت مملكـة الفرد. أخذ "ليكليرك" يشرح صعوبة العملية بإشارات متقطعة .. قبل بداية الحفر،عُرىً المكان تماماً من الرمـال والحطـام إلى أن وصلنا إلى رءوس الأعمدة وإلى الزخارف العليا للبلاط.جبـل من البضائع كان هناك،لذلك كـان لابـد مـن الحفـر لرفـع هذه

الأشياء وإخراجها بعيداً بمستويات غير متناسبة،وصلت فى بعض المواقع إلى عشرين متراً،حتى نصل إلى الطابق الرئيسى للقصر.ولم يكن العمل قد وصل إلى منتصفه.سأل الكونت "ماندراينكو" شيئاً ما بصوت كنقنقة الدجاج،مجرد فتح الفم وإغلاقه بطريقة غريبة.لم يفهم "ليكليرك" كلمة واحدة من السؤال.نظر إلى البارون الوقور طالباً المساعدة،فلابد أنه قد تدرب على هذا النوع من الكلام،أسرع البارون يشرح بأعصاب هادئة قائلاً : "سيدى الكونت يريد أن يعرف منذ متى بدأتم الحفر". وكان فى كلامه نبرة ازدراء غامض،كما لو كان من المنطقى أن يتكلم الملك العجوز بهذه الطريقة،وغبى ذلك الذى يفكر فى الاندهاش منه.سبب هذا الضيق لـ"ليكليرك" بعض الخجل،فأجاب: "منذ سبع سنوات يا سيدى الكونت،وقد كان لى شرف افتتاح العمل،والآن هيا بنا يمكننا أن ننزل من هنا ،فهو المكان الوحيد الأقل وعورة".وتقدم باضطراب إلى الكونت العجوز أمام الطابق المائل المنزلق.

حاول البارون مرة ثانية أن يقدم ذراعه للكونـت، الذى لم يرفضها هذه المـرة،وشرعا فـى النزول مقاربـاً بـين خطواتـه وخطوات الكونت.كذلك تقدم"ليكليرك" ببـطء شديد احتراما لهما. أصبح المنحدر وعراً .. الجـو سـاخن دائماً،والظـلال تقصر، الضيـف يسحب سـاقه اليسرى قليـلاً، معفـراً الحـذاء الجلدى الأبيض بالـتراب، من أعمـاق الحفـرة كـانت تصـل ضربات منتظمة،كما لو كانت لمطارق خشبية .

عندما أصبحوا فى عمق الحفر، لم يـروا أكـثر مـن بنـاءات خشبية أقامتـها الهيئـة مختفيـة وراء حافـة المنحـدر، فقـط الأحجـار الضخمــة القديمــة،وحولهــا الحــواف المتهاويــة والمنسحقة والساقطة.فى جهة الغـرب ارتفعـت هـذه الحـواف ارتفاعـاً شـاهقاً مشكلة جبـلاً حقيقيـاً، أبـداً لم يظـهر مـن قبل،والآن قهرته الشمس.

كـان "ليكلـيرك" الـودود يشـرح،والكونـت "مـاندرايـنكو" يرفع إليه وجهه فى كل مرة بطريقة آلية دون مشاركة، مصدِّقاً على كلامه بإيماءات قصيرة،ربما لم يكن يسمع حقيقة.ها هـو

ذا عمود المدخل، جزء ضخم من "أبى الهول"، النقوش الكتابية التى محاها الزمن تقريباً، حيث تنبئ بأشكال آلهة أو ملوك. غامضة كالجبال هذه الأسوار القديمة لا تجيب على نظرات البشر.

أبصر الغريب حين أذن فى السماء سحباً غريبة تتصاعد ببطء من قلب " أفريقيا" . ليس لها رأس ولا ذيل، كما لو كانت مقطوعة بسكين فقط متضخمة من الجوانب بدوامات رخوة مزبدة. وبفضول أشار إليها الكونت بعصاه.

قال "ليكليرك" شارحاً : " هى سحابات الصحراء، بلا رأس ولا ذيل كما لو كانت مسحوقة بين طابقين، أليس كذلك؟.."ظل الكونت محملقاً فيها لبضع لحظات ناسياً الفراعنة، ثم تحول إلى البارون فى جذل سائلا عن شيء ما. ظهر على البارون اضطراب وأخذ يفيض فى الاعتذار مبدياً ندمه الشديد. كان مفهوماً أن "فانتين"نسى أن يضع آلة التصوير. لم يُخْفِ العجوز غضبه، بل تحول عنه.. دخلوا إلى القاعة الأولى، وهى تسبح فى فوضى شاملة، فقط كان الترتيب المتناسق للأحجار

يشير بشـكل تقريبـى إلى زمـن إقامـة هـذه الأعمـدة والجدران.في الداخل صحنـان مجـدولان علـى شكل سمكتـين ممتلئتين،كانتا لا تزالان على هيئتهما متصلين بالجدار أكـثر انخفاضاً وانكماشا، حيث يشكل مدخل باب كبير.كـانت هـذه هى الزخارف الداخلية للقصر،وقد لاحظ "ليكلـيرك" تمثـالين بشـريين عملاقـين لدرجـة أن النقـش يشـغل واحـداً مـن الجدارين.. الفرعون "منفتاح الثانى" يمثل النجاح العظيم فـى المعركة.

تقدم رجل طاعن فـى السن يرتـدى طربوشا ورداء طويـلا أبيض من قلب المعبد،اقـترب مـن "ليكلـيرك" وحدثـه باللغـة العربية حديثا مضطربا. أجابه "ليكليرك" هـازا رأسـه وعلـى فمه ابتسامه. سأل الملازم "كريستيانى" بفضول: " عفوا،مـاذا يقول؟" أجـاب "ليكلـيرك" : " إنـه أحـد المساعدين.. يونـانى يعرف الآن عن المكان أكثر منى،فهو يعمل بالحفر منذ ثلاثين سنه على الأقل كان "كريستيانى" مصمما أن يعـرف مـا حـدث بعد أن فهم جزءا من الحديث،فقال: " لكن هل حدث شـىء ؟

قال "ليكليرك"" : " هى حكاياته المعتادة،يقـول إن بـالهم اليوم مشغول.. هو دائما يقول هكـذا عندما لا تسير الأمـور وفق هواه.. هناك صخرة لم ينجحوا فى نقلها،انزلقت خـارج نطاق تحكمهم،هم الآن مضطرون أن يستخدموا الرافعة."

قال "كريستيانى" متعجبا :" بالهم مشغول.. هه ..هه.. ألا يعرفون كم تنعش هذه المفاجآت الكونت "ماندراينكو" ؟!.

مروا بالقاعة الثانية هـى أيضا مدمـرة وكئيبـة.فقط علـى يمين القاعة مـا زالـت الدعـائم المستديرة قائمـة،تـبرز منـها هياكل عملاقة لفقرات عظمية مفتتة.فى الوسط،حوالى عشـرين مـن الفلاحـين يعملـون وعنـد ظـهور الســادة بـدءوا الهيــاج والتصايح فى همة عظيمة ظاهرة،كما لو كـانت أخذتـهم فـورة من الجنون .

مـازال الملـك الأجنبـى ينظـر إلى الضبـاب الصحــراوى الفريد،الذى تمدد متصلا بعضــه ببعـض حتـى أصبح سحابة واحدة كبيرة،ثقيلة وساكنة لا تتحـرك.مـر ظـل علـى حـواف الجبـل المائلـة إلى البيـاض جهـة الغـرب.الآن المسـاعد يتبـع

"لكلـيرك"، يقـود الضيـوف إلى اليمـين، إلى جنـاح جانبى، حيث المكان الوحيد الذى فيه الأبنية بحالة جيدة.كان معبداً جنائزياً، أصلح سقفه تواً، فقط بعض الثقوب هنا وهناك .دخلوا فى الظلام.خلع الكونت خوذته الضخمة، فأسرع البارون وقدم له منديلاً حتى يجفف العرق .كانت الشمس تتخلل بأشعة متوهجة رقيقة تسقط هنا وهناك على النقوش، فتعيد إليها الحياة.على الجوانب كان شبه ظلام وصمت، وأسرار.فى شبه الظلام كانت تتراءى تماثيل عالية، متصلبة العروش، بعضها مقطوع الرأس، أو من الوسط إلى الأسفل، تعبر كلها عن إرادة صارمة، ومهيبة لقوة القهر.

أشار "لكليرك" إلى أحد هذه التماثيل، ذراعه مخلوع، لكن رأسه تقريباً لم تمس.كان له فم صارم وشرير. عند اقترابهم أدرك الكونت أنه وجه طائر، منقاره فقط هو الذى تحطم . قال "لكليرك": "مهم جداً هذا التمثال، إنه الإله "تحوت". يعود أصله إلى الأسرة الثانية عشرة على الأقل، ولابد أنه كان يعتبر ثميناً حيث إنه نقل إلى هنا.كان الفراعنة يأتون إليه ليسألوه..

" توقف، وظل ثابتاً كمن يرهف أذنيه. حقاً هناك صوت خربشة نحت صماء لا يعرف من أى جانب تأتي. استأنف "ليكليرك" ليهدئ الجو قائلاً: " لا شيء إنها الرمال اللعينة، عدونا، ، معذرة، كنا نقول أن الملوك، قبل أن يسافروا للحرب، كانوا يسألون هذا التمثال المشورة كنوع من استشارة الإله.. فإذا ظل التمثال ساكناً فإن الإجابة بالنفى.. أما إذا حرك رأسة فهو موافق.. فى مرات كانت هذه التماثيل تتكلم.. من يدرى بأى صوت .. الملوك فقط هم الذين يتحملون هذا .. الملوك لأنهم أيضاً آلهة.."

تحول فى شك غامض، وهو يتكلم، خوفاً من أن يكون قد أرتكب خطأ ما لكن الكونت "ماندراينكو" كان يحدق فى التمثال باهتمام غير متوقع، ولمس قاعدته الجرانيتية بطرف العصا كمن يختبر متانته.. ثم سأل أخيراً فى نبرات متشككة سؤالا ما .وقام البارون بالترجمة مخمناً أن "لكليرك" لم يفهم كلمة: " سيدى الكونت يسأل عما إذا الملك يأتى بنفسه لسؤال التمثال "فأكد عالم الآثار كلامه بثقة : " بالتأكيد، يقولون..

ويقولون إن "تحوت" كان يجيبهم.. وها هو ما أقوله لكم ها هو ذا أمامكم في قلب اللوحة على القاعدة .. أنتم أول من يشاهدها .."وفتح ذراعية واسعاً،بحركة فيها شيء من المسرحية،وظل هكذا ساكناً ينصت من جديد.

صمت الجميع رغماً عنهم،صوت السحب عاد ينحت من جديد حولهم غامضاً،كما لو كانت القرون تحاصر المعبد ببطء،تحاول أن تدفنه مرة أخرى كانت أشعة الشمس منحرفة بعض الشيء،أما الآن فهي تنزل عمودية تقريباً،موازية للسمكتين الكبيرتين، لكنها خافتة..،تقريباً كانت السماء ضبابية.ما إن بدأ "ليكليرك" في الشرح، حتى ألقى البارون نظرة إلى الساعة في يده .. العاشرة والنصف .. إنها نار جهنم . سال "ليكليرك" بمودة :" هل سببت لكم بعض التأخير أيها السادة ألا يمكننا أن نعد لكم الإفطار في الحادية عشرة ونصف .." فقال الكونت في نبرة جافة متعجباً :"الإفطار؟ ثم توجه إلى "فانتين" بعد أن فهم قائلا:"ولكننا لابد أن نرحل في الحادية عشرة على

الأكثر.."

علق "ليكليرك" بلهجة بائسة "ألن أنال أذن الشرف؟ .. " فحوًل البارون الكلام بدبلوماسية شديدة قائلاً :" لقد شوانا الحر .. حقاً أصبحنا منفعلين .. لكن أعاهدك .."

اضطر عالم الآثار لاختصار حديثه على مضض،متجاوزاً إلى أشياء أكثر أهمية تحدث.ارتدت المجموعة الصغيرة على آثارها مرة أخرى.كانت الشمس غائبة،وغمامة حمراء تنتشر فى السماء،الجو قاتل . عند نقطة معينة غمغم الكونت ببعض الكلمات إلى "فانتين" الذى تركه وتقدم للأمام . توجه "ليكليرك" للخروج مع الاثنين الآخرين .و ظل الكونت وحده بين التماثيل الأثرية.

بعد خروجهم من المدخل،أخذ "ليكليرك" يفحص قبة السماء الزرقاء.كان لها لون غريب.فى تلك الأثناء سقطت قطرة من الماء على يده.إنها تمطر تعجب:" مطر..منذ ثلاث سنوات لم تُرَ قطرة ماء!..إنه نذير سيىء فى ذلك الوقت .. إذا أمطرت فإن الفراعنة تحاول القيام بمغامرة ما مرة

أخرى.."

تحول ليلحق بالكونت،الذى تخلّف فى المعبد بالداخل،لكى يخبره بالخبر الفريد؛ورآه.كان لا يزال واقفاً أمام تمثال"تحوت"ويتكلم.الصوت لم يكن يصل إليه،غير أنه لمح الفم يفتح ويغلق باحترام،بتلك الطريقة الفريدة للسلحفاة .

ترى هل يناجى الكونت نفسه ؟أم أنه يسأل الإله حقاً مثل الفراعنة القدماء؟ لكن ترى أى شىء يطلب منه؟ لا حروب هناك سيخوضها،ولا قوانين سيذيعها ولا مشروعات ولا أحلام. إن مملكته هناك عبر البحار ضائعة دائماً. الخير والشر فى الحياة ضاعا حتى فى القلب. لم تتبق إلا أيام تعيسة بلا جدوى،هى بالضبط نهايات الطريق. أى عناد يتشبث به إذن ليجرؤ على امتحان الأيام ؟ أم أنه تائه لا يذكر إلا شيئاً حدث قديماً ويتخيل أنه يعيش تلك الأيام الجميلة البعيدة؟أم أنه يقوم بمزحة؟لكنه لم يكن من هذا النوع .

صاح "لكليرك" فى فزع مفاجئ: " سيدى الكونت! سيدى الكونت نحن هنا .. لقد بدأت السماء تمطر.. "كان مجيئه

متأخرا جدا فقد خرج من المعبد صوت رهيب. امتقع وجـه "ليكليرك" وتراجع البارون "فانتين" خطوة،فانزلقت الحقيبة البيضاء من تحت إبـط الشـاب.وتوقفت قطـرات المطـر. صـوت أعمدة خشبية تتدحرج،أو دقات طبول كئيبــة،تصدر تقريبـا مــن معبــد "تحــوت"ثــم أخــذ الصــوت يمتــد فــى عــواء أجوف،متقطع، مضطرب ربما يشبه نواح النوق،بل هـو أسـوأ بداخله لون من ألوان الجحيم.

الكونت "ماندراينكو" ثابت،ينظـر. لا يبـدو عليـه تقـهقر ولا إشارة إلى الفـرار.كـان منقـار "تحـوت" الحـاد ينفتـح عـن ابتسامة ماكرة،الجناحان كأنهما ذراعـان مبتورتـان ينفتحـان وينغلقان بطريقة وحشية، الشىء الذى ربما يثـير مزيـدا مـن الرعب،ن حيث إن بقية التمثال ظلت هامدة بلا حـراك فـاقدة الحياة كلية . وكان الصوت يخرج من المنقار.

كان الإله يتكلم فى السكون .. هذا ما يبدو،فـإن أحجـاره اللعينـة كان لها رنين كئيب.

لم يعد "ليكليرك" قادرا على الحركة .. رعب لا مثيـل لـه

شل حركته،وجعل قلبه يقفز من مكانـه.والكونـت؟ كيـف استطاع الكونت أن يتحمل ربما لأنه كان ملكا هو الآخـر ؟ لـه قدسية تشبه الفراعنة المدفونين؟لكن الصـوت الأن يتمـاوج فـى همهمات.. يخفت،ثم يتلاشى تاركا صمتا مرعبـا.حينئـذ فقط تحرك الكونت،بخطواته الضيقـة الهشـة توجـه إلى البـاب لم يكن يرتجف،لم يكن خائفا.اقترب من "ليكليرك" وثبت عليه بصره بطريقة مخيفة،وقال وهو يهز رأسه علامة التأكد: شيء خارق.. حقا شـيء خـارق.. خسارة أن قـد تحطمـت كنـا بحاجة "

لم يكن البارون حاضرا هذه المـرة ليـترجم هـذه الغمغمـات الأخيرة . وحتى البارون كان سيصمت،سـيغلبه ذلـك العجـوز الجاف . الذى أصغى إلى لغز الحياة،مسكين هو.. لن يفهم أى شيء إلا انه قد تحدث إلى أحد الآلهـة. أخيرا تنهـد "ليكليرك" متوسلا،بعـد أن تملكـه هـاجس غـامض،وقـال: "ولكـن بحـق السماء ،ألم تسمع؟ "رفـع السـيد العجـوز رأسـه بحركـة متعالية،وقـال: "غبـى .. غبـى "ثـم أضـاف بتقطيبـة مفاجئـة

بعض الكلمات عن "فانتين" وآلة التصوير. واضح منها أنه مستاء بعد أن تمالك "ليكليرك" نفسه، حدق فى الكونت بشعور غريب، بين الانكسار والكراهية. غير أن مجموعة من الملاعين ظهرت من أقصى الحفر. الفلاحون يصرخون بجنون، والمساعد يهرع من جوف المعبد للنجدة وهو يصرخ سال "فانتين" فزعا : "ماذا يقول؟ماذا حدث؟"فقام"كريستيانى" الشاب بالترجمة قائلا "عملية تساقط، أحد الفلاحين دفن تحت الرمال."كور "ليكليرك" قبضتي يديه حيرة.. لماذا لم يرحل الغريب ؟ لماذا لم يكف عما فعل؟ لماذا أراد أن يوقظ السحر النائم لآلاف السنين .فى الحقيقة كان الكونت "ماندراينكو" قد ذهب فعلا، يجر ساقه عرجا. فى نفس الوقت أدرك "ليكليرك" أن كل شيء حوله من الجوانب التى أحرقتها الشمس إلى الصحراء.. كل شيء يتحرك . جلاميد صغيرة تنهار هنا وهناك فى صمت، كوحوش حذرة.. بحركة دائمة تنحدر تجاه الحواجز.. القنوات .. الفجوات الضيقة، المصاطب واحدة بعد

الأخرى،توقفت الآن،ثـم استأنفت،زاحفـة تجـاه الآثـار المدفونة،ولم يكن هناك أثر للرياح.بدت الضوضاء الناجمة عـن التساقط-للحظة- حقيقة مطمئنـة.فالنهايـة – والحمـد لله – كانت صورية فقط لكن الكونت الشجاع أسرع متعجلا.لم يسـأل لماذا يصرخ الفلاحـون،ولا نظـر إلى الرمـال،لم يلــق بـالا إلى "ليكليرك" الذى شحب لونه. فالقدر كان قد تحتـم، وانزلقـت قدمه بين دومات الرمال واختفى .ظل "ليكليرك" وحـده علـى حافة المنحدر،يحدق فى مملكته.الرمال تواصل تساقطها،بقوة غامضة .رأى الفلاحين أيضا يغادرون القصر فى فوضى سـريعة يهربون فزعين،يختفون بلا تفسير.والمسـاعد بردائـه الأبيـض يجرى هنا وهناك بنداءات غاضبة،محاولا عبثا أن يبقيهم فى مواقعهم،ثم خرس هو الآخر . حينئذ كان من الممكن أن يسمع صـوت الصحـراء وهـو يتقـدم:كـورس خـاضع مــن آلاف الخشخشـات الجماعيـة. والآن انـهيار رملـى صغــير أصــاب بانزلاقه المائل قاعدة العمود الأول، وتلاه تدفق ثان بعـد قليـل غمر القواعد كلها.غمغم "ليكليرك" (ربى ..ربى)

السمعة الطيبة

الكونت "أتليو فوسادورو" ، ذو أربعة وسبعين عاماً ، رئيس محكمة الاستئناف المتقاعد ، ضخم الجثة .. شعر ذات ليلة بتوعك، ربما لإفراطه في الطعام والشراب . قال وهو يأوي إلي الفراش : " أشعر ببعض الثقل ".

غمغمت زوجتة "الويزا" : " أنا أتحدى .. استسلم الموظف المتقاعد للغم ، وهو في الفراش.. مستلقياً علي ظهره ، وفمه مفتوح.. لم يكن يجيب أحداً .

هل كان نائماً ؟ أم مصاباً بثقل النبيذ ، أم هو مريض ؟ نادوه ، هزوه بقوة .. رشوا الماء علي وجهه ، بلا فائدة .

حينئذ خيم تفكير سيىء ، اتصلت السيدة "الويزا" بطبيبه المعالج الدكتور "البريتسى"

وصل الطبيب بعد منتصف الليل بنصف ساعة . نظر ، وقاس النبض ، وضربات القلب، رأى أن يظل في نطاق الشك ،

بدت عليه أمارات الرقة الدبلوماسية المفتعلة للأطباء ، تلك التي لا تترك مجالاً لتخمين شئ طيب . في صالون صغير ملاصق ، اجتمع الطبيب والكونتسة ، والولدان "اينو" و"مارتينا" -اللذان دُعِيا علي الفور - وأطالوا الحديث بصوت منخفض .

أصبح التخمين مهدّداً ، تقرير أن يعاد الأمر علي العّلامة الكبير الطبيب العجوز صاحب الشهرة العالمية .. له من العمر ثلاثة وثمانون عاماً من الاسم المدوي ، الأستاذ "سيرجو ليبراني" كان دائماً هو الأكثر شهرة ، غير أنه لم يكن يمثل بالنسبة "لفوسادورو" أكثر من الرعب .

قالت السيدة "الويزا" آمرة : " متي ستناديه إذن ؟ ! الآن حالاً ! "

" لا ، لا ، انزعي هذا من عقلك ، في هذه الساعة لا يتحرك مطلقاً ! "

" من أجل الكونت "فوسادورو" سيتحرك ، لكن كيف ! أتراهنني يا عزيزي "البريتسي" ؟ "

اتصل به فعلاً ، وفي لهجة قوية استطاعت أن تقلب عادات الأستاذ الصارمة .

وصل إلي القصر في حوالي الثانية ،يرافقه، بل يسنده كبير مساعديه ، الأستاذ "جوزيف ماراسكا" . دخلا الحجرة ، كان "فوسادورو" لا يزال غارقاً في نوم ثقيل ، يتنفس بصعوبة بالغة .

جلس علي طرف السرير ، وترك "الماراسكا" و "البريتسى" العمل ، الذي واصلاه خطوة خطوة : النبض.. تاريخ المرض .. الحرارة .. القلب .. الضغط .. الخ ..

بارد .. جفناه مغلقان علي نظرة ثابتة " أوكان الأفضل أن يفسر هذا بالنوم ؟ "

كان "ليبراني" يسمع دون أي انطباع .

في النهاية صاح "ماراسكا" في أذنه : " يا أستاذ ! " بدا الصوت المفاجئ مزدوجاً في ذلك المكان ، وفي تلك الظروف ، وفي تلك الساعة.

أفاق "ليبراني" علي الصوت ، وطلب الأطباء الثلاثة أن

يتركوا بمفردهم . لكن المشاورة لم تستمر أكثر من ثلاث دقائق . بعدها قال "ليبراني" للسيدة التي سألته منفعلـة : " مـاذا بعد يا سيدي ؟ "

أجاب: سيدتي ، قليل من الصبر ! سـتعرفين كـل شئ في الوقت المناسب ، من طبيبه المعالج. "

لم يبالغ "البريتسى" في قيمة نفسه .. اتخـذ الاحتيـاط الواجب ، فبدأ جوابه الحاسم الخطـير : " انسداد في شـراين المخ ، اشـتباه في ورم خبيـث .. لا أمـل .. أسبوع واحـد علـي الأكثر.

كم كانت دهشـة "البريتسى" في الصبـاح التـالي ، عندمـا حضر إلي قصر "فوسادورو" ليعرف الأخبار..

الخادمة "ايدا" فتحت الباب بابتسامة مضيئة قائلة:

" كل شئ علي ما يرام ، يا دكتور ، الأمور كلها بخير لقد ساورني الشك من أول دقيقة ، لكن هل كان يمكنني أن أتكلم بحضرة أولئك الأساتذة ؟ نعم هو تأثير الشراب ، لا شئ أكثر من ذلك "

في تلك اللحظة ظهر هو الآخر بشوشاً .. إنه المحتضر..

" شكراً يا عزيزي "البريتسى" علي كل الإزعاج الذي لقيته من أجلي هذه الليلة . يؤسفني حقيقةً .. أعرف ذلك.. ما كان يجب أن تحدث مثل هذه الأشياء في حياتي."

" لكن كيف حالك ؟ كيف وقفت علي قدميك؟"

" حسناً .. رأسى كان يدور قليلاً ، نعم .. لا شئ سيئاً غير ذلك علي الإطلاق . وفي هذه الحالات لا يوجد علاج يوازي نوماً جميلاً . "

عندما عرف "ماراسكا" خبر "بعث" " فوسادورو" من "البريتسى" أصيب أولاً بالذهول، ثم تحت ثقل الشعور بالفضيحة ذهب به الغضب كل مذهب . وقال :

" مستحيل خارق للعادة الأستاذ "ليبراني" لا يخطئ أبداً لا يمكن أن يخطئ في رأيك أنت ، ماذا يمكن أن يحدث ؟ لقد وقع الأستاذ في مأزق في الشهر الماضي ، ومن الجائز جداً أن يصاب بالسكتة القلبية . كان يجب أن يظل المريض في الفراش ستة أيام . هناك فشل . آخر محتوم . هل تفهم ؟

" بعد كل شئ ، فأنت غبي أيضا لأنك لم تفهم أن الأمـر لم يكن إلا حالة سكر "

"وأنت ؟ وأنت إذن ؟ "

" أنا .. أقسم أني شككت في هذا . لكن جرب أنت أن تخالف الأستاذ ، تعرف ما هو جنس طبعه . والآن ، لقد أعلن عن جثة "فوسادورو" . "

" يا للمصيبة وما العمل ؟ "

" اسمع ، بالنسبة للأستاذ ، يجب أن يتخذ الحرص الممكن ، أتفهمني ؟ نعم .. كل الاحتياطات سأذهب بنفسي للتحدث مع الكونتيسة؟

" لتقول لها شيئا ؟ "

" دع هذا لي . لا داعي للخوف . سأرتب الأمور علي خير وجه

تحدث "ماراسكا" الجامعي الجريء المتسلق إلي السيدة "الويزا" قائلا بوضوح : " هنا يحدث شئ بالغ الخطر ، الأستاذ "ليبراني" أصدر حكما بمصير قاتل .. قصير الأجل،

والمريض الخاضع للعلاج قام وتجول في البيت أيضا ، بغرض.. "

" لكن ، حقا .. "

" يا الله !! أي مصيبة ! مركز طبيب كبير ، له كثير من الحاسدين ، يوضع في مقامرة كهذه لا يمكن أن نسمح بهذا مطلقا . "

" لكن .. أعطني حضرتك المشورة يا أستاذ."

" علي أي حال ، الخطوة الأولي أن تقنعي الكونت بملازمة الفراش، اجعليه يفهم أنه مريض ، مريض بمرض خطير . "

" لكن ، إذا كان هو يشعر أنه بخير "

" لا ياكونتسة ، لم أكن أتوقع من حضرتك هذه المعارضة . ألا تقيمين حسابا لحساسية الموقف ؟ حياة مضيعة لخدمة البشرية المعذبة .. شهرة مكتسبة بالعمل المتواصل لسنوات طويلة ، أيسقط كل ذلك في الوحل ؟! "

" لكن ألا يكون من المنطقي أن تتحدث إلي زوجي ؟ "

"الرحمة يا رب! في ذلك العمر يتعلق المرء بالحياة

.. ثم إنه سيضع في الاعتبار .. اسمحـي لي .. أيضاً اسم بيت "فوسادورو" إذا قدر وعرفت الحقيقة ، إذا أصبح المستشار الكبير المستقيم ذو الحسب والنسب أضحوكة الساحة .. سكير مدمن .. بلا وازع من العقل!"

" أستاذ ، أنا لا أسمح لك .. "

" عفواً ، كونتيسة ، لكن المجال ليس مجال مجاملات .

الأستاذ "ليبراني" يجب أن ينقذ بأي ثمن . "

" وماذا يجب علي زوجي أن يفعل ؟ يختفي ؟ أم يتخلص من الحياة ؟ "

" هذا شغلكم يا كونتيسة . من ناحيتي سأردد : "ليبراني" لا يخطئ أبداً ، وهذه المرة أيضاً لم يخطئ .. أي غرابة في هذا ، تحفظ بسيط من أجل عالم كبير! "

"يا أستاذ ، أنا لا أعرف.. لا أفهم .. أنا شخصياً ليس عندي مانع في أن أضع نفسي تحت تصرفك .. "

عصراً .. حضر الأستاذ "ماراسكا" إلي قصر

"فوسادورو" والغضب يشتعل في عينيه ، يصاحبه اثنـان مـن المساعدين الشبان يرتديـان زي طـهاة ؛ واتخـذا وجهتـهما إلي المطبخ .في المساء أقيم عشاء عائلي كبير بمناسبة يوم ميلاد أحد الأحفاد ، من بين المدعوين ، كان هناك "ماراسكا"الثائر.

جـري تنفيـذ العمـل– في الحقيقـة – بنظـام فـني . هبطـت درجـة الانفعـال والانزعـاج . حالما تنـاول الكونـت "اتيليو فوسادورو" أول قطعة من التورتة وابتلعها ، تيبست أعضـاؤه ، ومـازالت علـي شـفتيه الابتسـامة الطيبـة الـتي كانت مرتسـمة منـذ دقـائق . علـي الفـور اتصـل "ماراسكا" بالعلاّمة قائلاً :

" تـهانينا مـرة أخـرى يـا أستاذ ، الكونـت يفـارق الحياة لحظة بلحظة . "

شبح الجنوب

من بين البيوت المترنحة ، والشرفات الـتي ثقبتـها أكـوام التراب ، بين الأزقة العفنة ، والجـدر المجصصـة، والروائـح الكريهة المعششة في كل ثقب ، وحدي في منتصف أحد الطـرق في "بورسعيد" رأيـت منظـراً غريبـاً. علـي جـانبي الطريـق ، وتحت البيوت بطولها يسير أهل الحـي البؤسـاء ، لم يكونـوا كثيري العـدد في الحقيقـة ، غير أن الشـارع كـان يبـدو مليئـاً بالحركة ، لأن الجماهير كـانت منتظمـة ومسـتمرة . في وسـط سحب التراب ، وانعكاسات ضوء الشمس الذي يُغْشي البصر، جـذب انتبـاهي بشـدة شئ كـالذي يحـدث في الأحـلام . لكـن الواقع أنه في وسط الشـارع تمامـاً – شـارع مثـل آلاف الشـوارع الأخري ، التي تعبرها العين بكل ما فيها من بيـوت فخمـة و أكواخ متداعيــة – تمامـاً في الوسـط ، عـبر رجـل يغمـره ضـوء الشمس تمامـاً .. عربـي علـي مـا يبـدو ، يرتـدي رداء طويـلاً أبيض ،كان يمشي ببطء في وسط الطريق ، مترددأ كأنه يبحـث

عن شيء ، أو كمن يتمايل مما به من دوار . كان يمشي مبتعداً بين الحفر المتربة دائماً بخطواته التي تشبه خطوات الدب ، دون أن يحترس منه أحد .. كان يبدو في ذلك الشارع ، وفي تلك الساعة كأنه يجمع في نفسه بقوة غريبة كل العالم الذي يحيط به .

كانت بضع لحظات إلي أن ارتد إليّ بصري ، أدركت أن الرجل ، بخطواته الغريبة قد اصاب روحي دون أن أعرف لذلك تفسيراً منطقياً . قلت لرفيقي : " انظر أي غرابة هناك! "وكنت أتوقع منه كلمة أشعر بدبيب قلق داخلي ، ومازلت أنظر إلي قلب الشارع لأراقب الرجل .

قال رفيقي :" أي غرابة ؟ " . أجبته : " نعم ، إنه ذلك الرجل الذي يترنح في وسط الشارع "

وبينما كنت أتكلم اختفي الرجل . ولا أدري إن كان قد دخل إلي أحد البيوت ، أو إلي أحد الأزقة ، أو ابتلعه الزحام الذي كان يزحف بطول البيوت ، أو أنه قد تلاشي وأصبح لا شيء ، أحرقته شمس الجنوب .قال رفيقي : " أين ؟ أين ؟ " .

فأجبته : " كان هنا ، لكنه اختفي الآن "

ثم ركبنا السيارة وقمنا بجولة ، فالساعة كانت الثانية والحرارة شديدة لم يعد القلق مسيطراً ، وإنما تحول بسهولة إلي نوع من التبلد ، إلي أن وصلنا علي حدود القرية الوطنية حيث البيوت الكبيرة التي تغطيها الرياح الإفريقية بالأتربة قد انتهت ، وبدأت الرمال والشمس ، وبعض الكواخ الرثة التي تمنيت -من باب الشفقة -- ألا تكون مسكونة . لكن عند النظر جيداً ، لاحظت أن هناك خيطاً من الدخان - لايكاد يري من بين لهيب الشمس-يتصاعد من إحدى هذه العشش ، شاقاً طريقة بصعوبة إلي السماء . إذن هناك أناس يعيشون بالداخل ، فكرت في ذلك وانا اؤنب نفسي،بينما كنت أنزع قطعة من الحشو من أحد أكمام ردائي الأبيض ظللت هكذا أشغل نفسي بهذه التأملات كسائح ، عندما خانتني زفرة .

فقلت لرفيقي : " يا لهم من أناس ! انظر ذلك الصبي والوعاء في يده ، مثلاً ، تُري فيم يأمل .. " لم أنه كلامي لأن أبصارنا لم تستطع أن تركز في ضوء الشمس علي شئ واحد ، فتحولت

مجهدة لتقع علي رجل في رداء طويل أبيض ، يخطر به متمايلاً مبتعداً عن الأكواخ إلي وسط الرمال ، تجاه حافة أحد المستنقعات.

قلت لرفيقي بصوت مرتفع ربما لأهدئ نفسي :

" يا للسخرية ! منذ نصف ساعة نتجول ، وعدنا إلي نفس مكاننا الأول ! انظر ذلك النموذج ، ذلك الذي كنت أكلمك عنه ! " كان هو فعلا ، لاشك في ذلك ، بخطواته المترددة ، كما لو كان يبحث عن شئ ما ، أو كمن يترنح ، أو به بعض الدوار . والآن أيضا يدير كتفيه ويذهب مبتعدا في بطء ، يكمل- علي ما يبدو لي- حلقات قدر صابر وعنيد .

إنه هو ، تولد القلق في نفسي من جديد أشد قوة ، لأني كنت أعرف جيدا أن هذا ليس هو المكان الأول ، وأن السيارة – علي أكثر تقدير – قد ابتعدت عدة كيلو مترات، لا يستطيع أن يقطعها رجل يسير علي قدميه . ومع ذلك كان العربي الغامض هناك ، يسير في اتجاه حافة المستنقع ، حيث لا أفهم عن أي شئ عساه يبحث هناك . لا .. إنه لا يبحث عن شيء،

أنا متأكد من هذا . سواء كان رجلا من لحم وعظم ، أو كان سرابا ، فإنه يظهر من أجلي ، ينتقل بمعجزة من مكان إلي آخر في المدينة لكي يعثر علي ، وكنت مدركا عن طريق صوت يهجس في داخلي بمشاركتي الغامضة التي تربطني بذلك الوجود .

أجاب الرفيق دون مبالاة : " أي نمونج ؟ أتعني ذلك الصبي الذي معه الوعاء ؟ "

قلت بغضب : " لا ، طبعا ! ولكن ألا تراه هناك في عمق الصحراء ؟ ألم ..ألم يكن موجودا هناك ، هو ذلك الذي .. الذي .. "

ربما كان تأثير الضوء ، أو بريق أشعة الشمس في العيون ، لكن الرجل كان قد تلاشي وكأنه لم يكن ، كارثة وخداع . في الحقيقة توقفت الكلمات في فمي ، أخذت أتمتم ، توقفت وظللت أحدق في الرمال الفارغة .

قال لي الرفيق : " أنت لست علي ما يرام ، فلنرجع إلي السفينة .حينئذ حاولت أن أضحك قائلا : " لكنني لا أفهم أي

غرابة هذه ؟ "

في المساء رحلنا ، نزلت السفينة إلي القناة عبر البحر الأحمر في اتجاه خط الأستواء ، وفي الليل ظل خيال العربي ماثلاً في نفسي، بينما كنت أحاول عبثاً أن أفكر في أشياء أخري حدثت في كل الأيام . ولكن كان يبدو لي فكرة غامضة أني أسير وراء شيء معين بقرار ليس هو قراري ، وقد استقر في عقلي أن رجل "بور سعيد" لم يكن شيئاً غريباً ، فقد كانت لديه تقريباً الرغبة في أن يوجهني جهة الجنوب ، ولم يكن تمايله وترنحه كالدب إلا تموهات ساذجة عن قالب السحر المؤكد الذي يحمله .

أقلعت السفينة ، وشيئاً فشيئاً بدأت أقنع نفسي بأنني كنت مخطئاً فالعرب جميعاً تقريباً يرتدون ثياباً متشابهة، لابد أن لبساً قد حدث لي وساعدته شكوكي . علي أي حال عدت لأسمع الصدي الغامض القلق صباحاً عندما رسونا في "ماسّاوا" . في ذلك اليوم كنت أتجول بمفردي ، في ساعات الظهيرة ، وكنت أتوقف عند المفترقات لأستكشف ما حولي .

كان يبدو لي أني أقوم بنوع مـن الفحص . ربما يظـهر إنسـان "بور سعيد" رجلاً كان أو خيالاً .

تجولت حوالي سـاعة ونصف الساعة ، ولم تعد الشمس تسبِّب لي ألماً " وهـي شمس ماسَّاوا الشـهيرة " حيـث إن التجربة يبدو أنها نجحت طبقاً لما كنت أؤمل فيه . قـادتني قدماي ناحية تاولود، توقفت لأقـوم بعمليـة مسح للمنطقـة ، رأيت عرباً وارتريين وسودانين ، وجوهاً نقية وأخري شريرة ، لكنه هو ، لم أره بينهم . بفرحة تركت نفسي أهيم في حرارة الشمس ، كمن تحرر من ثقل .

ثم حل المســاء ، وعاودنـا الرحلـة تجـاة الجنـوب . غـادر رفاقي السفينة حتي أصبحت شبه فارغـة ، شـعرت بـالوحدة والغربة ، شعرت بأني دخيل علي عالم الأخرين. الآن رفعـت المراسي ، وبدأت السفينة تقلع بعيداً عن الرصيف الصحراوي. لم يكن هناك أحد ليودعنـا ، فمـر بعقلـي الداخلـي للحظـة أن شبح "بور سعيد" كان مهتماً بأمري،ربما ليضايقني ، ولكنه أفضل من لاشيء ، نعم كان يخيفـني باختفاءاتـه السحرية ،

لكن هذا في نفس الوقت كان مدعاة للفخر . فالرجل – في حقيقة الأمر – جاء من أجلي "فرفيقي الذي كان يصاحبني في الطريق لم ير له أثراً " .

ومع اعتبار بعد المسافة الآن عن ذلك الكائن ، ظهر لي كأنه تجسيد لحل لغز أفريقيا . إذن كان هناك بيني وبين هذه الأرض،قبل أن أشتبه في ذلك،علاقة ما.هل جاءتني رسالة.من مماليك الجنوب الأسطورية كي ترشدني إلي الطريق؟

أصبحت السفينة علي بعد مائتي متر من الرصيف وها هو ذا شبح صغير أبيض يتحرك علي البعد ، علي الشريط الأسمنتي الرمادي . يبتعد ببطء علي ما يبدو لي– متردذا كما لو كان يترنح أو يذهب باحثاً عن شيء ما ، أو ربما كان مصاباً ببعض الدوار . بدأ قلبي يخفق . كان هو .. أنا متأكد من ذلك ، لا أحد يدري إن كان رجلاً حقيقياً أو خيالاً ، ربما أدار كتفيه ليتجه ناحية الجنوب " لكنني لست متأكداً بسبب بعد المسافة " ، سفير غير عادي من عالم قد أنتمي أليه أنا أيضاً .

واليوم في "هرر" أخيراً قابلته مرة أخري . أنا الأن هنا، في بيت شبه منعـزل لأحـد الأصدقـاء أكتـب ، صـوت المصبـاح البترولي يملأ رأسي،الأفكار تذهب وتـروح كـالموج، ربمـا مـن التعب ، ربما الهواء الـذي تسببه الآلـة . لا ، لم يعـد هنـاك خوف ، كما حدث قريباً عند المستنقع في
"بور سعيد" بل علي العكس ، كأنني أشعر بشئ أرق مما كنت أتوقع . رأيته اليوم ، بينما كنت أبحث فى شعاب المدينة ، كنت أسير منذ نصف ساعة في خلال تلك الشعاب الملتوية المتساوية والمختلفة في نفس الوقت ، وكان هناك ضوء جميل بعد نهاية العاصفة . كنت أتسلي بإلقاء نظرة من خلال الثقوب النادرة ، حيث تنفتح علي ساحات أسطورية ، كانت الطرقات مقفرة ، والبيوت – أو ما يشبه البيوت – صامتة ، أول ما يتبادر إلي الذهن أنها مدينة ميتة ، حصدها وباء ، وليس هناك سبيل للخروج . أصيب الليل هنا ، في بحثه الحزين عن الحرية .

كانت هذه الأفكار تراودنـي عندمـا ظـهر لي مـرة أخـري .

عند التقاء وعر للطرق المنحنية ، حيث كنت أنزل في طريق أقل انحناء وأكثر استقامة ، لذلك كنت أستطيع الرؤية علي مدي ما يقرب من ثمانين متراً كان يمشي بين الحصي مترنحاً، في مشية الدب ، وابتعد مولياً ظهره بطريقة ذات معني .. ليست حزناً خالصاً .. لم أعرف حقاً ماذا يعني . لكنه كان هو .. دائماً رجل "بور سعيد" رسول المماليك الأسطورية ، الذي لا يتركني أبداً .

جريت بين الحصي بأقصي سرعة ممكنة ، أخيراً .. لن يفلت مني هذه المرة ، جداران أحمران متماثلان يغلقان الطريق المنحني ، ولست هناك أبواب . جريت حتي منعطف الزقاق وانتظرت ، حتي لا يكون بيني وبين الرجل أكثر من ثلاثة أمتار . لكنه لم يكن هناك .. تلاشي في اللاشيء مثل كل مرة .رأيته بعد ذلك أكثر من مرة ، دائماً بنفس الشكل، يبتعد في اتجاه أحد المستنقعات ، لا إلي البحر ، ولكن إلي الداخل ، لم أعد اجري خلفه كنت اقف ثابتاً وأراقبه ، بحزن غامض حتي يختفي في زقاق جانبي .. ماذا كان يريد مني ؟

إلي أين يريد أن يقودني ؟ أنا لا أعرف من أنت ، هل أنت رجل، أم خيال ، أم سراب ، لكنني أخشي أن تكون مخطئا .. أخشي ألا أكون أنا الذي تبحث عنه . الهدف ليس واضحا تماما ، لكن يبدو لي أني فهمت أنك تريد أن تقودني إلي هناك دائما ، في كل مرة إلي هناك أكثر ، دائما إلي الداخل ، حتي حدود مملكتك المجهولة.

فهمت هذا .. وربما تكون جميلة .. صبور أنت ، تنتظرني عند مفارق الطرق المنعزلة لتعرفني الطريق ، وبحكمة حقيقية تتظاهر بأنك تهرب مني بديبلوماسية الشرق كلها ، ولا تجرؤ حتي أن تكشف وجهك . تريد فقط أن تجعلني أفهم – علي ما يبدو لي – أن ملكك ينتظرني في وسط الصحراء ، في القصر الأبيض الرائع ، الذي تحرسه السباع ، حيث تغني النافورات الساحرة . لابد أنها جميلة .. أعرف ذلك .. أريدها حقا .لكن روحي خجلة تتضرع .. عبثا أهدئ أجنحتها المرتعشة ، خفقاتها الشاحبة تدق بمجرد أن تتجه أنظارها إلي عتبة المغامرة الكبيرة .

لن يصدق أحد !

في شهر سبتمبر تسلمت هذه الرسالة :

" عزيزي "بوتساتي" أما زلت تذكر "برونو بيزيا" ، زميلك في الفصل ، في المدرسة العليا ؟ أعتقد لا .. بعد مرور سنوات طويلة . الآن إذن أقدم نفسي إليك لغرض محدد .. فأنا أراك –بواقع اشتغالك بالصحافة – مهتماً بالشخصيات والأحداث ، والبيئات الغامضة والغريبة لذلك أنا متأكد من أن "مورجينهاوس"وهو المكان الذي أعمل به ، في جريجوني ، يمكنه أن يتيح لك مادة شيقة فريدة .

" ربما سمعت كلاماً عن هذا ، وإن كنا نحاول دائماً أن نحتفظ بالأمر سراً . القصة تتعلق بنوع من العزلة ، أو هو مستشفى خاص ، من أجل المرضى بمرض مزمن ، يلقون فيه عناية خاصة ، كما يعالج أناس آخرون بدون مقابل . رأس المال يأتي من أمريكا والمكسيك وسويسرا والهدف هو ضمان نهاية مريحة لأولئك البؤساء . وما هي الطريقة ؟ كنت أريدك

أن تأتي لتتحقق بنفسك ، ربما تجد في ذلك روعة ودهشة. " لن أستطيع أن أقول أكثر من ذلك في الخطاب . إذا قبلت نصيحتي ، فاكتب إلي . وسأكون سعيداً بهذا. يمكنني أن آتي إلي محطة "كلاريس" لأستقبلك ونواصل الرحلة معاً بالسيارة و أنا أنبهك بأمانة بأنك ربما لا تستطيع زيارة "مورجنهاوس" من الداخل ، فحضور الأجانب محرم مطلقاً في الوقت الحالي ، لكن التنظيم الداخلي للبيت ليس فيه ما يثير اهتمامك أخيراً فإن الدافع لهذا الخطاب شئ مذهل . "

كنت أذكر "بيزيا" بشئ من الضبابية ، فهو لم يكن أيام الدراسة متميزاً . أما "مورجنهاوس" فقد سمعت كلاماً عنها كمؤسسة علاجية أسطورية ، في طليعة المؤسسات التي تكافح الأمراض المزمنة . شيئاً فشيئاً بدأت الجرائد والمجلات تتكلم ، ولكن التعليقات دائماً غامضة . كان يقال إنه بطريقةٍ ما يخلو المرض اللعين هناك من أي قسوة ، ويصبح فكرة يمكن تحملها . لكن كيف ؟ هل هي طريقة سرية للموت الهادئ بلا ألم ؟ هل هي معجزة تتحقق

بالإيحاء الجماعي ؟ أم هي مبادرة دينية ؟

علي أي حال ، المناسبة مشجعة صحفياً . بعد عدة أيام سأرد علي "بيزيا" بأني مستعد للمجيء إليه .

عندما رأيته علي محطة "كلاريس" ، بدا لي مختلفاً عن صورته البعيدة في مخيلتي . أصبح رجلاً طويل القامة ، قوي البنية ، ذات لحية قصيرة رمادية يتخللها الشعر الأحمر ، تحيط بوجهه الودود ، بدا لي أكثر شباباً مني فوراً رفعت الكلفة بيننا . بعد أن قطعت السيارة عشرة كيلو مترات تقريباً علي الطريق إلي "كاميدين" ، أتخذت طريقاً فرعياً ضيقاً ، لكنه مرصوف جيداً ، انتهي بوادٍ أضيق، كانت الساعة الخامسة من أصيل يوم صافٍ .

مع تقدم السيارة ، أصبحت الأكواخ الريفية ، والزراعات، ومظاهر الحياة الإنسانية نادرة . عند أحد المنعطفات ظهر بطن الوادي علي امتداد البصر ، محاطاً بسياج وعر من الغابات التي تصل إلي ثلاثة آلاف متر . وبسبب هذا الانحناء الوعر كانت السيارة تصعد المنحنيات بواسطة معابر من جذوع

الشجر . لم نعد نلتقي بأي مظهر للحياة . عندما وصلنا إلي أعلي حافة المنحدر ، ظهر مشهد رائع ..الجبال تشكل دائرة تحتضن غوطة معشبة مشجرة . وعلي قمة التل ، بمعزل عن الأنظار المتطلعة ، صخرة مقتطعة علي شكل صومعة الرهبان ، يتألق فيها مجلس الملك .

الآن .. من الصعب أن أسجل أي روعة لذلك البناء، ذي الذوق الحديث .. هو - باختصار - يبلغ أقصى درجات الخيال وإنعاش الروح ، هو يعبر بقوة عن الصفاء ، والخير والفخامة ، والسعادة الإنسانية . فوق الأبراج علي أسوار عاليه ترفرف ببطء رايات جليلة .

وعلي بعد عشرين مترا من حافة الهضبة ، بوابة بيضاء، تمتد من جانب المنحنى إلي الجانب الآخر ، مغلقة كل ممر . وأمام البوابة من الداخل ، في الوسط تماما ، ظهرت فيللا متناسقة مع المكان صغيرة لكنها أنيقة .

قال "بيزيا" : " هذا نوع من تجسيد الحراسة ، شرطي ورجل غابة في نفس الوقت . أنت ستنام هنا ، هو أفضل

بكثير وسأكون لك رفيقا هذه الليلة . "

قادنا رئيس الخدم إلي داخل الفيللا .. وجدتها شقة مؤثثة بأثاث فخم ، تبدو وكأنها شقة لأحد المليارديرات .. يتخلل الصمت موسيقى بطيئة تنبعث من بيانو .. لكن أين هو السر ؟ أين الشئ الغريب ؟ الدافع الذي حدا بالصديق أن يدعوني إلي هنا ؟؟ بدأ "بيزيا" الشرح ، بينما كانت ظلال المساء تنسدل علي عزلتنا الفاتنة وخرجنا من الفيللا ، فتح بابا فرعيا في البوابة الكبيرة . ودخلنا إلي المملكة المحرمة . انفسحت أمامنا معشبة .. يعلو بعضها بعضا في جمال ممتع ، حتى تنفتح علي القصر البالغ الفخامة ، علي أبوابه بدا لي أني لمحت شبحا إنسانيا يرتدي البياض .. كان يتحرك ببطء .

قال "بيزيا" : " لماذا نخاف الموت ؟ لماذا هو أكثر شئ رعبا في العالم ؟ الإجابة بسيطة : لأن الذي يموت يذهب ، بينما يبقى الآخرون . لو أننا صاحبنا المستقبل معنا إلي الحياة الأخرى ، لهان الموت علينا ، وتصبرنا عنه بسهولة . لو كانت الكارثة تصيب الجنس البشري كله ، ما تمكن الموت

أن يسبب لنا أكثر من ألم كبير .. الآن تخيل أن إنساناً محكوماً علية بمرض لا شفاء له ، حملناه إلي المستقبل .. ألف عام أو أكثر .. أحبابه .. أصدقائه .. زملائه في العمل كل أولئك الذين يصبون عليه مشاعر الرثاء القاسية ، وهم يرونه يذوى أمامهم، بينما هم ممتلئون صحة وشباباً .. كل أولئك سيصبحون عظاماً ورماداً .. كذلك الأبناء و الأحفاد ، وأحفاد الأحفاد .. هل تفهمني ؟ وسط هذه الظروف لن يعود المريض يهتم إلا بالموت . أقول إنه يسمو فوق شعوره المسكين بالإحباط..نعم سيكون ولكن هذا هو الإنسان . "

" وكل هذا شئ موجود بالداخل ؟ "

" برافو ، هذه هي بالتحديد طريقة "مورجنهاوس" .. ضيوفنا .. مرضانا ، يموتون هنا في ارتياح .. هنا يجدون أنفسهم ينتقلون إلي مستقبل بطيء .. الزوجات .. الأزواج .. الأبناء .. الأحفاد لم يعد لهم وجود من زمن سحيق .

هم فقط الذين نَجَوا هنا ، لذلك ينتظرون الموت بدون قلق ."

كنت أنظر إليه باهتمام ، يبدو أنه يتكلم جاداً

" وبأي طريقة تنقلونهم إلي المستقبل ؟ بالسحر ؟ أم بالخيال ؟ أم بالإيحاء النفسي ؟ أم بالتنويم المغنطيسي ؟ أم أن الأمر كله مجرد مزحة ؟ "

واصل "بيزيا" حديثة هادئاً وقال :

" اسمع .. إذا كان الزمن وحدة كلية متلاحمة ، فإن أنواعاً من الثغرات توجد به هنا وهناك ، أنواعاً من الثقوب .. حقاً هو شئ عسير علي الفهم ، ربما يحتاج إلي عالم فزيائى ليشرحه لك ، وربما هو أيضاً لا يفهم ، كما أنني لا أفهم بدقة ماذا يحدث .

حسناً .. واحد من تلك الحلول النادرة يحدث هنا ، حيث نقيم ، في هذا الركن المختفي في جبال الألب .. يوجد فوقنا ما يشبه الثقب الذي يسمح لنا بالاتصال بالمستقبل . "

" أي مستقبل ؟ "

" ذلك الذي سيحدث خلال مئات ومئات السنين . لم نستطع معرفة الفترة بدقة.. في هذا الوادي يتحطم البعد الزمني ، فيومنا يتواصل مع يوم البشرية في سنة 2500 ،

أو 3000 ، من يدري ؟ "

كان واضحاً أن المتكلم مجنون .. حاولت بصبر أن أوافقه ، فقلت :

" ولكن . ألا يصل إلي مرضاكم أخبار عن البيت ، ألا يقرأون الجرائد ، ألا يشاهدون التلفزيون ؟ كيف يمكنهم أن يخدعوا؟"

نعم هي عزلة كاملة ، وهم لا يندهشون منها ، ولماذا يندهشون ماداموا مقتنعين بأنهم يعيشون الألف الثانية أو الثالثة ؟ "

لكن .. كيف تقنعونهم ؟ ماذا تقول أنت في هذا التحطيم الزمني ؟ كيف يحدث ؟ "

آه ، جميل إنهم هم الذين يقتنعون بأنفسهم ، فقط يحتفظون بأعينهم مفتوحة إزاء ما رأوه ، وما يرونه باستمرار كل يوم .

" هل هي أطباق طائرة تأتي علي مرات ؟ "

غادرت أشعة الشمس الأخيرة القمم المحيطة بنا ،

وسرعان ما هبط الظل .. علي بعد نصف كيلو متر تقريباً أضاءت حجرات القصر الزجاجية بأضواء حالمة .. ارتفع صوت "بيزيا" قائلاً في نبرات مهيبة :

" تأتي ليلاً في الغالب ، وفي بعض الأحيان النادرة تأتي نهاراً ، نحن نراهم يمرون من "مورجنهاوس" .. "

" مَن ؟ "

" الأجيال الماضية ، لا ؟ أي شئ إلا الأطباق الطائرة . أنت أيضاً ستشاهدهم . "

لا فائدة من الاستمرار في المناقشة معه .. كان واضحاً أنها حالة ظاهرة من الجنون الكامل -وفهمت – في النهاية ، أن "مورجنهاوس" لم تكن إلا مؤسسة علاجية فخمة للأمراض العقلية ، وأن "بيزيا" المسكين كان واحداً من هؤلاء، وبما أنهم لا يؤذون مخلوقاً ، فإن الأطباء يتركونهم يخرجون في بعض الأحيان .كنت أشعر بالضيق ، فقلت له : " اسمع ، أشعر بالبرد ، كنت أريد أن أعود إلي الداخل ، وأنت

.لا داعي للمجاملة ، إذا كان لديك ما يستوجب عودتك إلي

المستشفي . "

" لا ، لا . سأصحبك ، ربما احتجنا إلي شئ أخر ، سنتناول العشاء معاً .. أنا قمت بترتيباتي ، ولا يوجد عندي عمل الليلة . "

كانت بقية تلك الليلة مؤلمة ، حيث مضت في أحاديث طويلة غريبة ومملة عن الزمن واللازمن ، والتي كان يجب أن أردَ عليها : "بنعم ، نعم ، ياله من كشف رائع ! سأجعل منه المانشت الرئيسي .." حتى تعللت بالنوم في حوالي العاشرة و النصف ، فتركني وتنفست الصعداء ، وأغلقت الحجرة عليّ. الآن لابد أن أبحث عن مساعدة من أجل العودة .

كان الويسكي والثلج معداً علي المائدة . شربت منه كأسين. ثم خرجت ونزلت ، لأبحث عن أحد عساه يدلني علي آلة المستقبل .

السلم والردهات كلها مضاءة ، لكنني لم أقابل إنساناً . ناديت فلم يرد أحد . كنت أفتح الأبواب – لعلني أجد بالخارج خادماً أو حارساً – عندما بدأ أنين جرس عميق

يرتجف في الفضاء .. رنين غريب ، كدحرجة كئيبة تصدر من أصداء أصوات غامضة في الكهوف ، تري من أين تأتي ؟

خرجت .. الأنوار في الخارج مطفأة ، أيضاً نوافذ "مورجنهاوس" أسفل مني كلها ظلام . تنتشر في السماء الصافية بين حين وأخر سحابة رقيقة من الضباب ، كما العادة في الجبال .

لكن .. عندما رفعت عيني إلي السماء أصيب قلبي بصدمة . فهناك من خلال غلالة رقيقة من الضباب لم تكن تخفي كل النجوم ، رأيتها تخرج أمامي من سلسلة الجبال الداهمة من اليمين .. طائرات ثلاث ..لابد أن حجمها الضخم هو الذي يجعلها تمر ببطء شديد . كان لونها رمادياً ، دون أي نوع من الأضواء ، سوى ما يبُعث من جسدها كله من ضوء خافت . هدَّأت نفسي .. أي غبي أنا ! ثلاث طائرات عادية . ماذا يعني أن تكون طويلة هكذا ، وأجنحتها صغيرة نسبياً ؟

إنها من طراز 95 حديث اخترعت لتوائم التطور .

صنعت شكل مثلث ، وأخترقت السماء فوق بصري ، ثم

اختفت خلف الجبال المقابلة .

لكن.. ماذا يحدث الآن ؟ كان يحدث أمامي في السماء خرق للمعلومات الهندسية .. سفن شراعية مستطيلة الشكل بغير زوايا ، تشبه شاحنة عملاقة .. رمادية اللون وفسفورية.هي أيضاً كانت تعطي شعوراً بمعدل أرتفاع يفوق الطاقة البشرية ، وبأنها تعمل بكفاءة عالية . عند وقت معين امتلأت قبة السماء كلها بهذه الأشياء . كانت تسير ببطء ظاهر ، وبصعوبة وغموض .

حينما اختفت أخر مركبة خلف المرتفعات ، وعادت السماء خالية كان عددها قد بلغ خمسمائة علي الأقل .

لا .. لم ينتِه الأمر بعد . الآن أري قطارين لا نهاية لطولهما معلّقين في السماء ، بعربات معوجة ، غير متساوية الأتساع .. أشياء مفزعة تثقل علي الحقائق الهندسية هنا وهناك .. اختفي رأسيهما خلف الجبال القريبة ، وظهر ما يشبه القوسين الخياليين أطرافهما غير منتظمة الشكل ، تحلّق علي ارتفاع مائة ميل أعلي الوادي . كانت هوة المستقبل

مفتوحة علي مصراعيها أمـام عيني ، ويكـاد مظـهرها ينطـق بحقيقـة أمرهـا .. تـرى مـاذا يكونـون ؟ أهـي هجـرة أحـد الشعوب؟ أم نفي ؟ أم جيش ذاهـب إلي الحـرب ؟ قـدر كئيـب كان يسحب ذلك القطيع من الوحوش البليدة الـتي لا يمكـن أن تنتصر .

كان الأمر يحتـاج إلي ربـع ساعة علـي الأقـل لكـي ينتـهي زحف القطارين المرعبين . لقـد كـان مشـهداً يوحـي بالتـهديد والخيال .. يوحي بأي شئ إلا المهابة ، ولا أدري لذلـك سـبباً ، كما لو كانت الشرذمة الغريبة التي تحمل الرعب سلاحف وخراتيت من العالم الأسود ، يختلف اختلافاً مروعاً عـن كـل ما تخيلناه من سـعادة في آلاف الأعـوام القادمـة .فـها هـي ذي رمادية .. جافة .. لا إنسانية .. قاتلة .. مريضة .. مشئومة.

ترى هل كان حلماً ؟ أم كان حقيقـة ؟ أبـداً لـن أسـتطيع أن أحكيه .. أبداً لن أستطيع أن أكتب ..

فلن يصدقني أحد !!

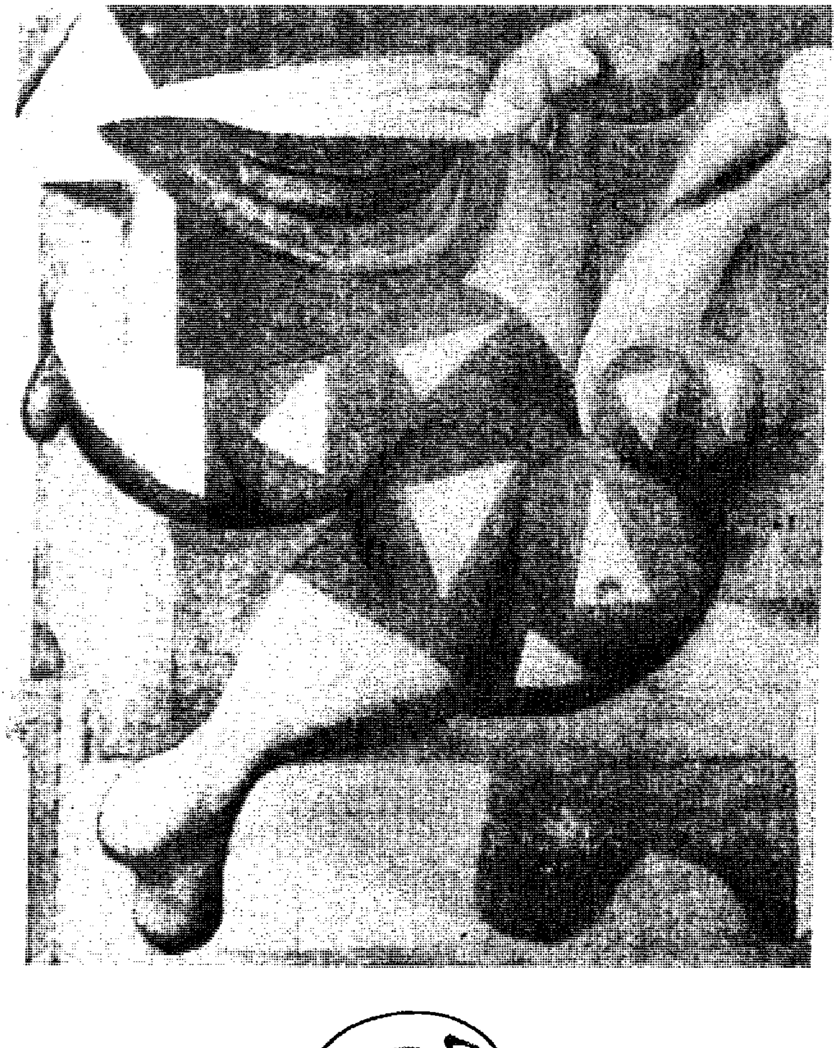
المؤلف

- دينو بوتزاتى
- ولد عام 1906 بشمال إيطاليا فى مدينة ميلانو
- عمل بالصحافة فترة طويلة
- عاصر الحربين العالميتين وكان مبعوثاً خاصاً إلى بعض الدول فى اوروبا وافرقيا واسيا وأمريكا ، ومراسلا صحفيا لجريدة corriere DeccAfera
- عشق السفر وبخاصة إلى افريقيا التى كتب عنها بعض القصص
- يتمتع بأسلوب يضعه فى مصاف الكتاب العالمين الكبار
- له العديد من المؤلفات فى القصة القصيرة والرواية والمسرحية
- من اعماله: رعب فى مسرح سكالا،مقتل التنين،صحراء التتار،شبح الجنوب،توفى عام 1972

المترجم

- د. نجوى عمر كامل حسين
- مدرس بقسم اللغة العربية -كلية الألسن - جامعة عين شمس
- ولدت عام 1964
- تترجم عن الإيطالية ولها عدة أبحاث نشرت فى صحيفة الألسن ومجلة دار العلوم فى الدراسة الأدبية المقارنة،كما أنها تكتب الشعر ولها عدة دواوين .

الفهرس



سندباد للنشر والتوزيع